

الكتاب الرابع

١- شغل فردريك - ابن أخي كونراد - منصب حكم الألمان، بعدما واجه كونراد منيته (١)، وكونراد هو الحاكم الألماني الذي سلف وذكرناه بها فيه الكفاية في روايتنا المتقدمة، وبما أن فردريك قدّر النبالة تقديراً عالياً، (بالنسبة للزواج كان أهم الأشياء لديه أصالة العروس، فالعروس الأصيلة كانت لديه مفضلة على كل شيء آخر) وقد سمع أن ماريا ابنة السيياتوكراتور اسحق [أخو مانويل] كانت متميزة بالمولد، ومتفوقة بالجمال، وقد بلغت سن الشباب في بيزنطة، فوقع على الفور في أسرافتها، وبعث بالرسول إلى الامبراطور، وطلب أن تخطب إليه لتكون زوجته، ووعد بالوفاء بكل ما وعد به عمه كونراد وهو معه، عندما كانا عائدين من فلسطين، ووعد كذلك بتقديم العون للرومان في الاستيلاء على ايطاليا، ولقد حملت سفارة فردريك هذه الشروط وطلبت الموافقة عليها (٢).

وقبل الامبراطور هذه العروض، وقام نفسه بارسال رسل إلى فردريك، وأمرهم بتأكيد الاتفاقات، وعندما جاء هؤلاء السفراء للحديث مع فردريك لاحظوا عدم وجود أي شيء صلب في نواياه، فعادوا دونها نجاح، وذلك بعدما أقنعوه بارسال سفارة ثانية إلى الامبراطور، وعندما رفضت أيضاً من قبل الامبراطور، أرسل الامبراطور رجلاً من الارستقراطية [١١٥٥] فيهم ميخائيل باليولوغوس، وجون دوكاس، وكلاهما قد وصل إلى مرتبة سيباستيو Sebastoi، وكان بينهما أيضاً الاسكندر صاحب [كونفيرسانو Conversano] الذي كان يحكم غرافينا Gravina فيما مضى، وهي مدينة ايطالية، لكن

عندما طرده روجر جاء ملتجئاً إلى الامبراطور (٣)، وعهد إليهم بكمية كبيرة من المال من الامبراطور عند سفرهم، وقد توجب عليهم أنهم إذا عرفوا أن فردريك مقيم في جنوب الألب أن يذهبوا جميعاً لمقابلته، أما إذا كان موجوداً في مكان أبعد، فعلى ميخائيل الذهاب إلى ايطاليا مع المال، وأن يذهب البقية إلى فردريك، وإذا ما عبر عن عدم اعتراف بالاتفاقية، فالمتوجب عليهم آنذاك أن يتقدموا بأنفسهم باعلان الادعاء بامتلاك ايطاليا، وكان هذا ما حدث بالفعل.

٢- كان لروجر [الثاني] طاغية صقلية ابن اخت اسمه [روبرت أوف] بازونفيل (٤) Bassonville ، وفي أثناء حياة روجر، كان يتولى ادارة حكومة ايطاليا [أي أبوليا]، وبعدها مات وانتقلت السلطة إلى ابنه وليم [الأول]، أنزل بازونفيل إلى مرتبة معاون لحاكم ايطاليا، حيث تولى رجل آخر حكومة ايطاليا، ورفض بازونفيل تحمل هذه الالهانة، فعزم على الثورة، وبناء عليه كتب إلى فردريك، ووعد بوضع ايطاليا كلها مع صقلية بين يديه، وفي الوقت الذي كان فيه فردريك أسير التردد والمصاعب عاد رسل بازونفيل مخفيين، وفيما هم على الطريق صدف أن التقوا بالاسكندر، وكان الاسكندر بدوره عائداً من بلاط فردريك بعد اخفاقه في تحقيق أي شيء كان قد قصد ذلك البلاط من أجله، وكان أثناء عودته من هناك برفقته [جون] دو كاس، وعندما تحدث رسل بازونفيل مع الاسكندر، وعلم الاسكندر السبب الذي توجهوا من أجله إلى بلاط فردريك، توجه إليهم بالخطاب يقول: «أيها الأصدقاء الأعزاء، على مقربة منا شخص يمكنه منح النجاح لسفارتكم»، وعندما رغبوا إليه في معرفة من هو، أجابهم قائلاً: «امبراطور الرومان»، وحدثهم عن كل شيء بانتظام، وأضاف بأن باليولوجوس، الذي كان عضواً من المجلس الروماني، والذي تمت [ترقيته] (٥) إلى مرتبة الـ Sebastoi، كان موجوداً ومعه مبلغ كبير من المال، وقد جاء إلى هاهنا لاختضاع

إيطاليا لصالح الامبراطور.

وعندما سمع رسل بازونفيل هذا، أوصلوا إليه هذه الحقائق برسالة، فأبدى رغبته في مناقشة المسائل مع الرومان في بيسكارا Pescara، ولدى اطلاع باليولوجوس على هذه المستجدات، قام بدون تأخير بالبحار إلى بيسكارا ومعه عشرة سفن، واستولى وهو في طريقه على فيستي -Vies-ti، وآلت ملكية هذه المدينة إلى الامبراطور، وهنا بدا لبازونفيل أنه من المفيد اللقاء معه في فيستي، لذلك أبحر عائداً إليها، فالتقيا هناك، وبعدما تبادلوا الأيمان حول المسألة قيد البحث بينهما، انضم وقتها إلى عملية الصراع (٦).

وكان دوкас قد جمع قوة، قادها إلى خصار قلعة كانت حسنة التحصين، يتولى قيادتها ايطالي اسمه براونتروس Prountzos، وعندما هاجمها الرومان، دفعوا بالأعداء من وراء الأسوار، وانقضوا على الفارين، وهرب البقية إلى داخل الحصن، لكن عندما أخذ الرومان باللقاء النار في أماكن السكنى، وبنهب الممتلكات والمقتنيات في البيوت، شرع الناس بالنزول وهم يهتفون بحياة الامبراطور وينادون به سيداً لهم، وهكذا بات الرومان متملكين لها، وعندما وصلوا إلى مدينة تحمل اسم القديس المبجل هناك، وهو القديس (٧) Flaviano، اندفع السكان جميعاً عبر الحقول، يسألون ويرجون عدم تعرضهم للأذى، أو أي ضرر من الجنود الرومان، ووافقوا على أن يدينوا بالطاعة إلى الامبراطور وأن يفعلوا كل شيء يرغب به الرومان، واستجاب لهم القائد الروماني بكل لطف، ثم زحف من هناك وكأنه يسير وسط بلد صديق، وفيها هو على نية الانطلاق من هناك، جاء وليم أخو بازونفيل، وكان صديقاً للرومان منذ القديم، جاء يحمل رسالة من أخيه يحث فيها دوкас أن يطمئن نحو المستقبل، لأن المنطقة الواقعة آنذاك أمامه باتت تدين بالطاعة له نفسه (٨).

٣- وكما ذكرنا من قبل بعدما استولى باليولوغوس على فيستي بموجب معاهدة، تابع زحفه نحو تراني Trani ، وعندما رأى شعب تراني الجيش الروماني، أرسلوا رسلاً إلى القائد الروماني وطلبوا منه المغادرة، ذلك أنهم كانوا لا يرغبون في تسليم المدينة له، وأعلموه انه من غير الممكن له الاستيلاء على تراني إذا لم يحتل باري Bari أولاً، وبناءً عليه غادر من هناك مصطحباً معه ليس من أقل من عشرة سفن، وقصد باري، وذلك على الرغم من معارضة جنوده، (ذلك أنه كان بارعاً جداً، ولم يكن أدنى من أي انسان في الخبرة العسكرية) فهو كان مدركاً تماماً أنه لم يكن من السهل الاستيلاء على تراني، ولذلك رأى عدم اضاءة الوقت فيما لا يفيد.

ومع هذا بدت باري مدينة مستعصية على الفتح، فقد أحاطت بها أسوار عملاقة، كما كان فيها جيشاً من البرابرة، وقف بعضهم بأسلحتهم فوق ووراء الدفاعات واندفع البقية، وكانوا حشداً لا يحصى، من الأبواب نحوه، وتألفوا من المشاة والفرسان، في كامل السلاح، وكان البحر هائجاً بفعل عاصفة عنيفة هددت بجرف السفن، ومع أن أمره كانت محاطه بالمصاعب من كل اتجاه، هو لم يفقد الأمل، وبعدهما تدبر أمره ونجا من الأمواج خلال عدة أيام، أبدى رغبته بانشاب القتال، ولأن الأمور لم تتيسر له كما كان يأمل فقد أرغم على التراجع فوراً (ذلك أن بعض الأعداء رماه بالحجارة والأخشاب وأي شيء كان متوفراً من فوق الأسوار، وغطى آخرون، كانوا على الأرض، السماء بزخات من النشاب) وابتعد عن مدى رماياهم، وجرب أن يتخاطب معهم بلغة الكلام، فأخبرهم عن الأشياء الجيدة التي سيصنعها لهم على الفور إذا ما قاموا بتقديم مدينتهم إلى الامبراطور العظيم بدون قتال، وضمن لهم آمالاً عظيمة بالنسبة للمستقبل، وعندما سمع الذين كانوا بالمدينة هذا، اندفع بعضهم نحوه على ظهور خيولهم، وبعضهم على متن الطوافات، ودعوه

إلى الاقتراب من المدينة مشيرين إلى الأبواب المفتوحة، وخشية منه أن تكون المسألة — كما ثبت — خدعة، لجأ أولاً إلى الاختبار، فأمر لهذا الغرض إحدى السفن التي كانت معه أن تقترب من الشاطئ وكأنها تريد الرسو، لكن ما إن رآها الأعداء تقترب حتى صعد حوالي الخمسمائة منهم فوق الأسوار، ووقفوا وراء الدفاعات.

ولاحظ هذا الاكسندر [أوف كوفير سانبو]، وخشية منه أن يلجأوا إلى السلاح، خرج ذهباً من حافظته، واعتلى بسرعة ظهر السفينة، عارضاً الذهب أمام الذين كانوا في المدينة، وصاح بأعلى صوته: «على كل من يريد الثروة والحرية، أن يقدم إلى هنا ليتفتح بهم فوراً» وما كاد ينتهي كلامه حتى اندفع عدد كبير منهم نحوه من داخل المدينة، والتحقوا فوراً بجانب الامبراطور، وفور استقبال القائد الروماني واقسامهم يمين الطاعة، قام بدون تردد بقيادة الجيش ضد المدينة، وعلى هذا ما من شيء يخدع الناس أكثر من جاذبية الذهب، وعندما عرف بقية السكان ما حدث، وكانوا غير راضين عما وقع، بادروا مسرعين نحو القلعة، وما ان أصبحوا وراء أسوارها، حتى شرعوا بالقتال في سبيل [ممتلكاتهم]، وكان ما حدث بالفعل شيئاً يبعث على الدهشة، فمثير أن ترى الناس الذين كانوا متحدّين منذ قليل بالأصل والهدف ينقسمون اليوم بوساطة الذهب، ويفصلون عن بعضهم كما وكأن بينهم أسوار، ومشاعر كراهية نحو بعضهم بعضاً. على هذه الشاكلة مضت الأمور هناك.

وكان هناك قلعة أخرى عبر المدينة، قام في داخلها كنيسة القديس نيقولا، وفكر القائد بالاستيلاء عليها، فعمل كما يلي: وشح رجالاً بالأردية السوداء، وأمرهم بالنهوض عند الفجر والذهاب إلى الكنيسة، وعندما صاروا في داخلها أشهروا سيوفهم وقاتلوا، وبذلك اقتربوا من القلعة عند الفجر، وقرعوا على الباب، وافترض الذين كانوا بالداخل أنهم من الرهبان، فرفعوا مغاليق الأبواب، وسمحوا لهم بالدخول، وبهذه الطريقة

باتت القلعة بأيدي الرومان.

وصحيح أن هذه القلعة قد احتلت، فإن الذين كانوا بالقلعة الأخرى ظلوا صامدين، لقد وقفوا حتى اليوم السابع يواجه أحدهم الآخر، لكن عندما وصل بازونفيل إلى هناك على رأس جيش كبير جداً، سلموا القلعة إلى الرومان، وحدث إثر هذا أنهم لكراهيتهم نحو روجر ولحقدهم عليه تولوا هدم القلعة حتى الأساسات، وتخلصوا منها، مع أن القائد عارض ذلك بشدة، وعرض شراءها مقابل مبلغ كبير من المال، ومرد كراهيتهم لروجر، هو أنه تصرف نحوهم بشكل غير انساني، وذلك وفق عادة كل طاغية.

٤- على هذه الصورة جرت الأمور في باري، وبعدهما استحوذ باليولوغوس عليها، عاد مبحراً نحو تراني، فاستولى عليها صلحاً، ثم استولى على جيوفينازو Giovinazzo، وهي مدينة مشهورة وكان هناك واحداً اسمه رتشارد [صاحب أندريا Andria] وكان رجلاً مجرمًا متوحشاً، كان يذبح الناس كذبح قرابين الضحايا، فإذا ما اختلف مع انسان حول أي شيء تافه، كان إما أن يأمر بتوسيطه، أو بحرمانه من يديه أو قدميه، وكانت مثل هذه العقوبات عادية جداً بالنسبة له، ولقد كان آمراً لقلعة أندريا، وعندما سمع أن الرومان يريدون الاستيلاء على جيوفينازو، حذرهم أولاً من فعل ذلك، ثم هددهم بأنه سيمنعهم من القيام بذلك، ولكن كما هو معلوم تجاهلوا تهديداته، واستولوا صلحاً على جيوفينازو، وخططوا للزحف على أماكن أخرى، ولذلك اتحد مع عدد آخر من الكونتات، ومع [أنكلتين Asclettin] حاجب وليم، الذي يقال له بالاغريقية لوغوثير Logothete، وقد ذهب معهم إلى تراني لاسترداد هذه المدينة بدون مقاومة، ولحق به جيش، تألف من ألفين من الفرسان، وحشد هائل من الرجالة المسلحين.

وكان الرومان الذين خلفوا في داخل تراني عددهم قليل وقوتهم صغيرة جداً، ولذلك كانوا مرعوبين كثيراً، خوفاً منهم على المدينة وعلى أمورههم، ولهذا بادروا مسرعين إلى استدعاء دوكاس، موضحين له برسالة القدر الذي حاق بهم، وعندما تسلم الرسالة تهيأ، وانطلق في اليوم نفسه، وأخذ الطريق إلى تراني، ولدى وصوله إلى بقعة اسمها روفو (٩) Ruvo، تقدم الناس الذين كانوا هناك نحوه، وقاموا بحث الجيش الروماني على تملك مدينتهم بدون قتال، ورأى دوكاس —على كل حال— أن التوقف هناك عديم الفائدة، وخشي من أن ذلك سيسمح لرتشارد بالاختلال بموازين القتال بدون معيق، ولذلك تجاوز المدينة مؤقتاً، ومرّ دون وقوف، طالما أنه سيكون بإمكانه الاستيلاء عليها مؤخراً في الوقت المناسب، وبادر ضد رتشارد بأقصى سرعة ممكنة.

وكان على الطريق مدينة ساحلية اسمها بارليتا Barletta، صدف أن كان القنصل بها، وفيما دوكاس يتقدم نحوه، كان هناك قوة من جيش [أسكلتون] قوامها ثلاثمائة فارس مع فرقة من الرجالة تقوم بأعمال الدورية، واصطدم دوكاس فجأة بهذه القوة، فقام بدون أن يفقد وعيه تجاه الحادثة غير المتوقعة، بكل سرعة بتعبئة رجاله وصفهم على شكل كتلة صلبة، وانقض عليهم بهجوم فعّال، وبعدها قاوموا لبعض الوقت، لحقت بهم الهزيمة، وأنا غير قادر على وصف كيف قاتل الرومان هناك، وأظهر كل واحد منهم أفاعيل شجاعة، فقد حمل دوكاس ويده رمحاً، فطرح أرضاً —كما قيل— بطعنة واحدة ثلاثين رجلاً منهم، وبعدهما فقدوا كثيراً من رجالهم، هربوا حتى غدوا وراء أبواب بلدتهم، وقام الرومان الذين طاردوهم، بالعودة إلى المعسكر، وكان النهار قد مضى أكثره، وكانوا لم يعانون من أية خسائر باستثناء واحد من المرتزقة الخيالة، وصحيح أنهم عسكروا هناك لإمضاء الليل، فقد ركبوا الطريق مجدداً مع انبلاج الصباح.

وعندما علم رتشارد بالذي حدث، هرب من هناك بأقصى سرعة ممكنة، خشية أن يطوقه الرومان، ويحصل له كسر لا يمكن جبره، وما إن وصل إلى أندريا، حتى مكث هناك، وبعدما أنقذ دوкас الجيش الذي كان مع باليولوجوس، قام بالزحف خلف رتشارد، مع أن القوات التي كانت من حوله متفوقة على قوات الرومان بأعداد كبيرة، فقد كان الرومان ستمائة بلازيادة، وذلك فيما عدا الرجالة، الذين كانوا هم أنفسهم أدنى كثيراً من الأعداد الهائلة لقوى الرجالة التي كانت مع رتشارد. فقد تبع رتشارد ألف وثمانمائة من الفرسان مع جيش لا يحصى عدداً من الرجالة.

وعندما سمع رتشارد أن الرومان يقتربون، قام بنفسه بقيادة جيشه والتقدم نحوهم، ولدى اقترابهم من بعضهم بعضاً، انقسم الرومان إلى ثلاثة أقسام، تعبأوا كما يلي:

وقف الكومان وحملة الأقواس من الرجالة في الأمام بصف متلاحم، ووقف دوкас مع نصف الخيالة، وخاصة جماعة من الكومان في الساقة، بينما احتل بازونفيل مع الكونتات الآخرين وبقية الفرسان الأرض المتوسطة، وكان رتشارد غاضباً جداً، وغير قادر على تأدية أية براعة لها علاقة بالعلم الحربي، لذلك حمل والفرسان من حوله حتى وصل إلى مركز الجيش الروماني نفسه، وبذلك عطل حركة القتال وكاد يوقفها، ذلك أن الصف الأمامي للجيش الروماني الذي تألف من النبالة لم يستطع الصمود أمامه حتى ولا لمدة قصيرة، ثم مارس الضغط على بازونفيل، فأرغمه على التراجع نحو الخلف، ثم قاتل بعد ذلك الذين كانوا حول دوкас، وهنا تطور قتال عنيد، وقتل عدد كبير ممن مع رتشارد، ولكن بما أنهم سقطوا وسط الضغط العظيم لم يعرف بذلك الجيش، وكان القتال عنيفاً جداً، وما كنت تسمع سوى أصوات قعقة السلاح والضربات العنيفة على الترس، وتطايرت أعداد لا تحصى من

النشاب في كل مكان، وأحاقت المخاطر بكل مكان، حتى حملت قوات رتشارد حملة عنيفة وضغطت بشدة فأرغمت الرومان على ادارة ظهورهم، فدوكاس نفسه، سقط أرضاً بفعل طعنة رمح، وكاد أن يقع بالأسر.

ولكن العناية الربانية تقود وتوجه جميع الشؤون البشرية وفق ماتريد، فصحيح أن الرومان وصلوا إلى هذه الحالة من سوء الحظ، غير أنهم نجحوا في النهاية، ذلك أن دوكاس نجا فراراً إلى واحد من الأسوار المقامة من الحجارة، بدون ملاط أو إكساء، فلقد كان من النوع الذي يقف خارج أبواب المدينة ليكون بمثابة علامة فارقة للمروج، ولقد كان أمناً هناك، ثم جاء الرجال الرومان إلى عونته، وقذفوا بالحجارة على الذين كانوا من حول رتشارد، وهكذا تجمع هناك معاً كثير من الذين فروا من قبل، ولدى ملاحظة رتشارد لذلك، اندفع نحوهم مع ستة وثلاثين فارساً، وقام واحد من أهل تراني، وكان صاحب مرتبة بين رجال الدين، بالوقوف فوق مكان مرتفع، وقذف بكمية كبيرة من الحجارة نحوه، فأصابه على إحدى ركبتيه، فألقاه أرضاً، وفيما هو منبطح على الأرض يئن من الألم، قام رجل الدين هذا بتوجيه قذيفة نحو رقبته، ولشعور رتشارد بالهزيمة بدأ يستعطف بحرارة ليرحم ويبقى حياً، لكن رجل الدين ألقاه على ظهره، وطعن بمديّة في بطنه، فشقها وأخرج منها أحشاؤه، مثل اخراج الطعام من الفم، وقدم رتشارد بذلك مثلاً على وحشيته تجاه الأسرى التعساء، ثم خرج أهل أندريا وجاؤوا ومعهم القوات المسلحة إلى الرومان وتصالحوا معهم، وعاد الرومان، الذين كانوا لا يتوقعون النجاة من المخاطر، إلى باري، تخفق فوق رؤوسهم علامات النصر، فوجدوا هناك كميات وافرة من المؤن، فنقحوا فيها واستراحوا مما عانوه من المتاعب العسكرية.

٥- وبعد مضي بعض الوقت، بدا مفيداً قسمة الجيش إلى شطرين، شطريبقى هناك مع واحد من القادة، ويمضي القسم الآخر مع

القائد الآخر ليقوم بالاغارة على القلاع المجاورة، ووقع اختيار القتال الخارجي على دوكاس، وكان هناك مدينة، يحكمها رجل عالي المكانة اسمه كاسترو، فقام دوكاس بتطويقها وحصارها بكل نشاط، لكنه مالبت أن لاحظ أنه كان يحاول المستحيل، وذلك بسبب أنه قام بعدة محاولات متكررة للاستيلاء على الأسوار (فتبرهن لديه انعدام الأمل بخرقها بالحجارة مع أنها ضربت مراراً بآلات الحصار)، فانطلق من هناك ساعة حلول الظلام، وبادر مسرعاً نحو مونوبولي Monopoli، عازماً على مهاجمتها بشكل مفاجيء، وصدف آنذاك أن كان شعب مونوبولي مرسلين جيشاً ضد الرومان، ليكتشف أولاً ماذا كان يجري هناك، وليصطدم بهم حيثما يكون ذلك ممكناً، وصدف أن التقى رجال مونوبولي بطلائع الجيش الروماني، ووقفوا وجهاً لوجه معهم، وعندما وصلت هذه المعلومات إلى الذين كانوا في الساقية، هرب غالبية الفرسان، وركضوا نحو المدينة، وحدثوا أهل المدينة وأخبروهم، بأن الجيش الروماني قد حان وصوله، ووقع كثير من الرجال بالأسر، واضطربت المدينة لسماع هذا، ومع هذا قرر أهلها مقاومة الأعداء وهم على الحالة التي كانوا فيها، وبناءً عليه تقدم مايزيد على مائتي فارس ومعهم أكثر من ألف من المشاة، في حين لحق بهم حشد لا يحصى عدده من حملة المقاليع، ووقفوا أمام المدينة.

وعندما كان الوقت مايزال نهراً، توقف دوكاس، واحتفظ لنفسه بما يزيد على نصف الجنود، وأرسل البقية للقيام بنهب المناطق المجاورة، ثم استأنف زحفه بعدما قسم الجيش إلى نصفين، غير أنه بالواقع لم يشتبك مع رجال مونوبولي مباشرة، بل تظاهر أنه يقوم بالتجسس حول الأسوار، ثم تقدم قليلاً، مظهراً أنه يقوم بتفحص المدينة بالتفاصيل، ثم قام بدون سابق انذار، فأمر ثلاثين من رجاله بالانقضاض على الأعداء، واندفع هو إلى وسطهم، وأذهلتهم المفاجأة، فأداروا ظهورهم هارين، وطاردتهم، ولم يتخل عن ذلك حتى وصل خلفهم حتى أبواب المدينة، وقام بطعن

أحدهم بنفسه فألقاه أرضاً داخل الأبواب، وبعدما قام باسترداد من كان وقع من أصحابه بالأسر، غادر المكان، وفي تلك الأثناء كانت القوة الأخرى قد قامت بالطواف في المنطقة وعادت ومعها الأسلاب، ثم انها عادت أيضاً مع دوكاس إلى باري.

وأثناء حدوث هذه الأشياء، جاء رسل إلى القائدين الرومانيين مرسلين من قبل أسقف روما، الذي اعتاد اللاتين على منحه لقب بابا (١٠)، ورغبت السفارة أن يذهبا كلاهما أو واحد منهما إلى روما للبحث في مسائل هامة مع الأسقف، ذلك أنهما قالاً بأنه قد حشد ما أمكنه من قوات وكان يستعد للقتال إلى جانب الرومان، واستجاب القائدان الرومانيان لهذا المطلب برسالة، كما أرسلوا رجلاً اسمه باسيلكوس، وكان من موظفي ديوان الامبراطور، لكنه كان آنذاك مرافقاً لهما، وأعطياه ذهباً لاستئجار فرسان من هناك.

وقام القائدان الرومانيان بالإعداد للحرب ضد مونوبولي، وحيث أن سكان مونوبولي لم يمتلكوا الشجاعة للتصدي للرومان، فقد طلبوا منحهم وقتاً محدداً، إذا لم يأتهم خلاله أية مساعدة من أي مكان، فإنهم سيسلمون المدينة طواعية وبدون قتال، وتمّ هذا، وقامت هدنة لمدة شهر منحت إلى أهالي مونوبولي.

٦- وفيما الرومان منشغلين بهذه المسائل، كانت القوات الصقلية تقاتل بازونفيل، فقام هذا باستدعاء القائدين الرومانيين برسالة وطلب منها القدوم إلى مساعدته بأقصى سرعة ممكنة، وعندما لم يلتفتا إلى طلباته، كرر مراسلته لهما، وتساءل عن المسألة نفسها، ورد عليه القائدان الرومانيان في البداية أنهما لم يقدموا إلى هناك من عند الامبراطور ليقاتلا لصالح بازونفيل (ثم ان المعاهدة بينهما وبين بازونفيل ليس فيها هذا) بل قدما بشكل محدد للاستيلاء على ايطاليا لصالح الامبراطور، وأن ينالا

المساعدة منه، لقد أجابا بازونفيل على هذه الصورة، غير أنه لم يتوقف عن حثها قائلاً بأنه مطوق بالمخاطر، وبعد تقدير للمسألة ذهباً من باري إلى مدينة بيتيتو Bitetto ، وكان الطريق يحتاج يوماً واحداً للرجل المسلح، هذا وكانت قد راجت شائعة تقول قبل هذا بأن بازونفيل قد خبط لخيانة الرومان لصالح رتشارد صاحب أندريا، عندما كان مايزال حياً، ولهذا السبب قرر الرومان أنه كان من الضروري ربطه بمزيد من الأيوان، وعندما تمّ تنفيذ هذا، عاملوه بدون المزيد من الرية.

وأرسل الامبراطور في الوقت نفسه اسطولاً إلى ايطاليا، مشحوناً بفرسان من اللان (١١)، والفرنجة والرومان، وكان اياناكيوس Ioannakios الذي كنيته كريتوبلس Kritoples يقود اللان، أما الفرنسيون فكان يقودهم الاسكندر [أوف كونفيرسانو Conversano] وهو لومباردي [أي أبولي] المولد، لكنه كان موقفاً نفسه تماماً على خدمة الرومان وشؤون الامبراطور، وكان لجنون الذي كنيته أنجيلوس القيادة العامة (١٢)، وعندما سمع قائد قوات وليم بهذا، وبأن جيشاً رومانياً كان يقترب منه، وهو يقوم بحصار أندريا وبنهب الأراضي هناك، ذهب مع جيشه كله إلى مدينة مولفيتا Molfetta ، التي كانت حصينة بما فيه الكفاية.

وعزم الرومان على اخضاع بوسكو Bosco ، وهي قلعة كانت تخضع إلى رتشارد المتوفى، وهي أقوى من أي قلعة أخرى، ومن الصعب جداً الوصول إليها، وكان هناك معرضاً هائلاً فيه كل نوع من أنواع الوحوش النادرة، لكل منها مقرّ خاص به، وذلك بهدف تيسر الصيد بالنسبة له كلما أراد، وقاد دوкас عدداً قليلاً من رجاله وجاء ليتفحص المكان، وعندما اقترب منه، تشجع الذين كانوا في داخله، وتقدموا حيث انقضوا على وسط الرومان، فأوقعوا فيهم أربعة قتلى، غير أن اثنان من رجالهم سقطا، وتحول القتال إلى اشتباك بالأيدي، وبعدما اجتمعت

القوات الرومانية، تمكنت من دفع الأعداء إلى داخل موقعهم، وعبر كثير من الرومان مع اثنين من اللان في هذا القتال عن شجاعة ونبل، وانتهى القتال هناك، وقام دوكاس، عندما جاءت بقية القوات باقامة معسكر أمضى الليل فيه، حيث قام في الفجر بتعبئة رجاله، وزحف بشكل نظامي، وفيها الهجوم مستمر، قام الرومان بازعاج الذين كانوا في الداخل بالنشاب والمقذوفات من آلات الحرب، ودافع الآخرون عن أنفسهم بفعالية ونشاط من وراء الشرافات.

وحدث آنذاك حدث جدير بالذكر، فقد رأى اثنان من حرس دوكاس القلعة وقد تضررت من رميها بالحجارة وتهدمت، ومع ذلك لم تستسلم، لذلك سترأ رأسيهما بالترسة، وحمل كل منهما بيده الأخرى مشعلاً وقصدا الأبواب لاحتراقها، ولكن بما أن المواد كانت غير قابلة للاحتراق، فقد تراجعاً مخفيين، وتجنباً —خلافاً لجميع التوقعات— الأشياء التي قذفت نحوهما من فوق الأسوار مثل زخات المطر. وبعدها استمرت المعركة حتى غياب الشمس، تراجع الرومان إلى المعسكر، وذلك لأنهم لم يحققوا شيئاً.

وعلم قادة وليم بهذا، فعقدوا اجتماعاً للتداول حول امكانية القتال ضد الرومان، وكان رأيهم أن يجمعوا قواتهم، ويزحفوا على المعسكر الروماني، وعلم الرومان بذلك فاستعدوا للتصدي لهم، وكان تسعة من القادة يتولون قيادة الايطاليين، وكان الحاجب هو القائد العام، وكان جيشهم كامل التسليح، وكانوا يمتطون خيولاً قوية، ويحملون رمحاً طويلة، ولدى وقوف الرومان على هذه الأشياء، استولى عليهم الرعب، وتساءلوا كيف يمكنهم بجيش صغير القتال ضد قوة جيدة التسليح وهي لاتعدّ ولاتحصى، ومع هذا وقفوا مصطفين على شكل جماعات، في حين اقترح عليهم القادة أشياء كثيرة أوصلتهم إلى الشجاعة، ووقف الجيشان لوهلة دون مباشرة القتال، ولكن عندما صدحت الأبواق من الجانبين، وأعطيت شارة الهجوم، انقض الفريقان على بعضهما، وأخذوا

يقاتلان يداً بيد، وكان بإمكانك أن تقول إنه لا أشعة الشمس ولا ضوء النهار كانا مشاهدين، فقد امتدت سحابة من الغبار فوق كل شيء وصعدت نحو عنان السماء، وارتفعت أصوات الضربات وتصاعدت رنة السلاح.

وظل القتال حتى منتصف النهار متكافئاً، لكن الطليان شقوا بعد ذلك طريقهم وذلك بفضل تفوقهم العددي، وضغطوا على الذين كانوا حول دوкас، ولاحظ دوкас بسرعة المشكلة، فاندفع إلى وسط تشكيلات العدو، وهو يطعن فيه على الجانبين، وتبعه الرومان بالهجوم وهم يصرخون، وهكذا اشتبكت القوات ثانية، واحتدم القتال واشتد كثيراً حتى تمكن الرومان بشجاعتهم من دفع العدو إلى الخلف، وفقد العدو أثناء الفرار ما لا يقل عن ثلاثمائة من فرسانه، وحشد لا يحصى عدده من المشاة، غير أن البقية نجوا فراراً، وبعدهم نجح الرومان في هذا، تحولوا عائدين نحو قلعة بوسكو، وبعدهم تغلبوا عليها، وجدوا فيها كميات وافرة من المؤن، وبعدهم زدوا أنفسهم بمختلف الأنواع الجيدة، عادوا إلى باري.

٧- وبعدهم مدة وجيزة صاروا ممتلكين لـ «مونتيلوسو-Montepelo

SO» وهي مدينة واسعة الشهرة، واستولوا على «غرافينا Gravina»، التي كان الاسكندر صاحب كونفيرسانو يحكمها من قبل، كما واستولوا على عدد كبير آخر من البلدات والحصون، ويضاف إلى هذا أنهم استحوذوا على خمسين قرية، وهكذا ازدهرت شؤون الامبراطور من كل جانب بشكل عظيم، لكن قواته كانت تتجنب وليم وتتعد عنه باستمرار، وكان هو في الحقيقة، في وضع صعب، وراجت في ايطاليا كلها أقاويل تعلن عن أن الرومان لا يقهرون، ثم إن الايطاليين لاحظوا أن الرومان، الذين لم يعانون من فنون القتال لديهم منذ حقبة طويلة من الزمن، كانوا ينتزعون كل ما يمتلكون تقريباً ويحملون معهم جميع مقتنياتهم.

كانت الشؤون الرومانية تتحرك حتى الساعة مع التيار، لكن منذ ذلك الحين بدأ القدر يحسد بعض الشيء حسن حظهم، وحل مرض على باليولوغوس، ألهب الرجل بحمى حارقة، ولم يتوقف عن امتصاص نضارته الطبيعية وقواه، حتى تم ارغامه على أن يصبح أولاً بلا شعراً (١٣)، ثم بعد مضي وقت حمله هذا المرض بعيداً عن بني البشر، وقبل وفاته لبس شعراً مستعاراً، وبدا وكأنه يتحسن، فقام بتوجيه دوكاس للهجوم على بقية المدن التي لم تكن قد دخلت في حوزة الرومان، وبعد هذا بثلاثة أيام، ساء وضعه كثيراً، وعندما علم دوكاس بذلك عاد إلى باري، فوجده قد مات، فأمر بوضع جسده داخل تابوت، وذلك بعدما جهزه وفقاً لما سمحت به العادات المسيحية والطقوس المتبعة، وإثر هذا قام بترتيب الأمور بشكل جيد في باري، وبذلك بات صاحب السلطة، والمشرف على القضايا بالنسبة للمستقبل.

٨- وهكذا فارق باليولوغوس الحياة، وكان رجلاً فظناً وبارعاً جداً في التعامل مع المسائل العسكرية، وقاد دوكاس جيشه وتوجه مباشرة إلى برانديزي، فقد كان متشوقاً بشكل خاص لأن يلحق بازونفيل به، ذلك أنه كان قد انفصل وابتعد للسبب التالي:

فهو قد ابتعد — إما كما أظن — ليعطي نفسه حجة للحصول على المرابح، أو كان بالواقع يعاني من قلة المال، فقد كان قد سأل باليولوغوس — عندما كان حياً — أن يقرضه عشرة آلاف قطعة ذهبية، فاقترح عليه على الفور أن يمنحه أربعة آلاف بمثابة إعطية من الامبراطور وليس ديناً، ورفض تماماً امداده بالباقي، فغضب بازونفيل لهذا، وانفصل عن الجيش الروماني، ولكن ما ان توفي باليولوغوس، وحل محله دوكاس في المسؤولية عن الأمور، حتى جاء بازونفيل إليه، فحصل على مبلغ المال الذي أراده، وشارك من جديد في الجهود العسكرية الرومانية.

وأخذه دوكاس معه وتوجه نحو مسافرا Massafra ورفقته بقية الجيش، وكان هناك مدينة اسمها بوليميلون (١٤) Polymilion، وكان فيها واحد من أتباع وليم اسمه فلامنغ Flameng، وعندما سمع هذا باقتراب الجيش الروماني، غادر المكان وذهب إلى تارنتو Taranto، واستولى الرومان على بوليميلون ونهبوا أحوازها، فأثقلوا جيشهم بالغنائم، وذهبوا من هناك إلى مدينة موتولا Mottola، التي كانت قائمة فوق مكان مرتفع، وكانت قوية وجيدة التحصين من جميع الجوانب، فقد قام على طرف منها شعاب ووديان جبلية حقاً يستحيل الوصول إليها، وأحاط بها من جانب آخر نهر عميق يصلح للملاحة، لكن بدا أن مامن شيء يمكنه أن يعيق الذين يبشرون بريح طيبة، ومع أن موتولا بدت آمنة محصنة من جميع الجوانب، فقد استولى عليها الرومان دون بذل جهود كبيرة وفي وقت قصير، وذلك وفق طريقة سأتولى حكايتها:

لقد كانت معنويات الرومان عالية جداً نتيجة لانتصاراتهم الماضية، وعندما شاهدوا أهل المدينة ومصدر شجاعتهم هو طبيعة المكان، وكانوا واقفين خارج الأبواب التي كانت هناك وهي مفتوحة من أجل القتال، وقتذاك حمل الرومان وصعدوا الراية مسرعين، وتملكت الدهشة أهل المدينة لما رأوه من جرأة، واندفعوا يقاتلون قرب أبوابهم، وعندما انقض الجيش الروماني عليهم، لم تكن هذه الأبواب قد أوصدت، وهكذا تم الاستيلاء على المدينة عنوة، وبعدما أنجز الرومان هذا، انطلقوا من هناك.

وبعد وقت قصير، التقى بهم فلامنغ وهم يزحفون، وقفز بعض الرومان أمام وحداتهم واصطدموا بالأعداء، وأظهروا براعة ومهارات رائعة، لكن بما أنهم كانوا أقل عدداً من خصومهم فقد تراجعوا، وفي تلك اللحظة اشتبك دوكاس ومعه جميع قواته بقوات فلامنغ وأرغموها على التراجع، ثم هاجموا مسافرا فاحتلوها عنوة، واكتشف دوكاس وجود كميات هائلة من المؤن والعتاد مخزنة في القلعة، وكان بينها سلاح كثير وما لا يقل عن

مائي فرس، ولدى سماع أهالي تارنتو بذلك قام رجالهم بعدما جمعهم الحرفيون ومعهم جيرانهم بتوجيه الاهانات بشكل مكشوف إلى فلامنغ، واتهموه أنه بجبنه الشخصي سبب شجاعة الرومان، ولم يستطع فلامنغ تحمل هذه الاهانات، لذلك أعاد جمع عساكره، ووقف ينتظر الجيش الروماني، لكن ما ان أصبح هذا الجيش مرئياً من قبله، حتى أصيب بالرعب، ولم يستطع تمالك نفسه أو يسترد شيئاً من شجاعته، وقامت ثلة من الرومان بقتال أتباعه وهم منهزمون فقتلوا بعضهم.

وعندما أصبح الرومان على مقربة من تارنتو، تصوروا أن المدينة لاترام، ولذلك تركوها عازمين على الوصول إلى مونوبولي، ونظراً لقلّة ماكان بحوزتهم من أسلحة الحصار، استدعوا —بوساطة رسالة— الأسطول الراسي في باري، للقدوم بأقصى سرعة ممكنة، وبذلك يمكنه أن يحمل منها الكثير من الأشياء، وعبر الرومان في الوقت نفسه خلال منطقة خصبة، مليئة بأنواع كثيرة من المنتجات، لذلك أشبعوا أنفسهم بأشياء جيدة، فقد قيل كان بإمكان الجندي شراء عشرة رؤوس من الماشية بقطعة ذهب واحدة، وأن يشتري بالمبلغ نفسه مائة وثلاثين من الأغنام، ووجدوا هناك أيضاً بعض الرومان الذين كانوا مودعين بالسجن منذ زمن طويل، فأطلقوا سراح هؤلاء المساكين وفكوا أغلالهم.

٩- ولدى وصولهم إلى مونوبولي في اليوم الخامس، لم يخرج أحد للتصدي لهم، (لأن الأقاويل التي راجت حولهم أرعبت أهل المدينة، وأجأتهم للاختباء وراء الأسوار) لكنهم وقفوا شاكي السلاح فوق أبراجهم، مستعدين للدفاع عن أنفسهم، إذا ما وصلت الحملات إلى الأسوار، ونصب البيزنطيون معسكرهم، ومكثوا في مكان موائم ليس بعيداً جداً عن المدينة، وبما أن دوكاس كان قد استدعى الاسطول إلى مونوبولي، فقد جاء من باري، وأمد عملية الحصار بما يكفي من المؤن، ثم هاجموا الأسوار بالقوى كاملة، لكن بما أن السكان كانوا يصبون على

أعدائهم أشياء كثيرة، فقد تمكنوا من ردّ المهاجمين الرومان وقتل بعضهم، وكان القتال قد بدأ بالصباح، وقد استمر حتى الليل، وبسبب حلول الظلام عاد الرومان إلى معسكرهم، وعين أهالي مونوبولي حراساً لحماية الأبراج وجعلوهم يتناوبون ذلك خشية أن يطمع الرومان فيلحقون الأضرار بالمدينة أثناء الليل، ولهذا أشعلوا الآلاف من النيران في كل جهة، وكانت الأبواب وأدوات النفير تزعق.

وعندما أخذت الشمس طريقها نحو الأفق الشرقي، وبدأ نورها يشع فوق سطح الأرض، خرج الرومان من المعسكر، وعادوا إلى القتال، وفي الوقت نفسه اندفع رجال مونوبولي إلى مواقعهم، وحملوا أسلحتهم، ومرة أخرى جرى صراع عنيف واشتباكات مع الرومان الذين كانوا يحاولون جاهدين شق طريق للوصول إلى الأسوار، لكن العدو المهاجم أمكن صده من قبل رجال مونوبولي، وبذل الرومان غاية جهدهم في هذه الظروف، ثم قام جيشهم فيما بعد بإلقاء النار في سفن أهالي مونوبولي التي كانت راسية هناك، وسببوا بذلك صعود هيب عظيم.

وقام واحد من الجنود الرومان، واسمه هيكانتوس Hikantos بعمل رائع يستحق الحكاية والسماع:

كان يحيط بمدينة مونوبولي سور مزدوج، وكان السور الداخلي مرتفعاً جداً، وكان من غير الممكن ادراكه برماح الأعداء، في حين كان السور الأخر الذي استدار حول قاعدة الأول يساوي بالارتفاع ثلثه، وتسلق اثنان من رجال مونوبولي فوق هذا السور، وأخذوا يرمون نحو الأعداء ويحشون الآخرين للالتحاق بهم، ولاحظ هيكانتوس هذا، فقام بالهجوم برمحه فأمكنه إصابة واحد من الرجلين، فوقع فوراً على الأرض، وتبع هذا صدور صوت عظيم عن الجيش الروماني، وصار الصراخ هائلاً، ولا يمكن تحمل سماعه، وأدهش ذلك الواقفين فوق الأبراج، وخيل إليهم أن

المدينة قد سقطت، فتخلوا عن الدفاعات وركضوا نحو مركز البلدة، ولولا أنهم أدركوا الوضع بسرعة، وعادوا فاعتلوا الدفاعات لسقطت المدينة على الفور بيد الرومان، وعلى هذه الصورة انتهى الهجوم الثاني على مونوبولي.

وبسبب معرفة شعب مونوبولي أنهم باتوا في مأزق مؤلمة، بعثوا برسالة إلى فلانغ وسألوه أن يقدم إليهم بما أمكنه من سرعة، فأجابهم بأنه سيلحق بهم بعد وقت قصير مع جيش كبير، ليتولى طرد الرومان وإبعادهم، وظلّ الرعب ساكناً داخل فلانغ، وامتلاً بجبن لاحدود له عندما قدّر من سيقاتل، وضد من ستكون المعركة، وبناءً عليه عندما حلّ اليوم السابع، ولم يظهر فلانغ من أي جهة من الجهات، وقتها استولى اليأس على شعب مونوبولي، وقنطوا من وصول المساعدة إليهم من أي اتجاه، لذلك بعثوا برسلمهم إلى الجيش الروماني، مع عرض بتسليم المدينة وأنفسهم إلى الامبراطور العظيم، وأخبرهم دوкас أن تعهداتهم لا تكفي في هذه الاتفاقية، مالم يقبلوا بوضع حامية فوقهم من قبل الامبراطور، وعندما وافقوا على هذا، جرى تحديد تاريخ لعقد الاتفاق [وابرامه وتنفيذه].

وقام بعض سكان مونوبولي (ممن كان غير راضين بما تمّ صنعه) باخبار فلانغ بهذه الأشياء، وذلك دون معرفة الآخرين، وأثارت فلانغ هذه الأخبار، فاختر ما لا يقل عن مائة من الفرسان المسلحين من بين أتباعه، وبعث بهم على الفور، وقال إنه سيلحق بهم بعد قليل، وتحت لوائه قوة معتبرة، وانتظر الذين وافقوا على هذه الأفعال وصول هؤلاء الجنود في ليلة استمر فيها هطول الأمطار من فوق، وأدخلوهم إلى المدينة من خلال باب جانبي، وبناءً عليه خططوا لحمل السلاح ثانية، وما ان وصلت هذه الأخبار إلى مسامع دوкас حتى عدّ السفارة التي جاءته من مونوبولي خدعة، وقام على الفور بالتقدم على رأس جيشه زاحفاً من

المعسكر، لكن ما ان أدرك أهل مونوبولي أن المائة فارس لا يكفون لعونهم، وبما أن الجيش الروماني كان في حالة استعداد للقتال وحماسة أكثر من قبل، قاموا وراسلوا دوكاس ودعوه إلى المدينة ثانية عازين المشكلة إلى آخرين، سارعوا إلى اقرار الأعمال الحالية بدون موافقة جماعية، وأظهر دوكاس رفضه في البداية، وتمسك بوجود خداع كبير، وتعجرف معلناً أن المسألة قد تقرر البت فيها بواسطة الحرب، ولكن عندما ضغط عليه السكان أكثر، ورجوه أن يعفو عنهم ما اقرضوه من إثم، استجاب مؤخراً وقاد قواته إلى داخل المدينة.

وساعة استيلاء الرومان على المدينة، وصلت تقارير تحدثت أن فلانغ بات على مسافة قرابة عشرين غلوة من المدينة [ميلان ونصف الميل]، وما ان علم دوكاس بهذا حتى بادر إلى اختيار فرسان من أتباعه على أساس براعتهم، وبعث بهم لاعتراض سبيل فلانغ، وبقي هو نفسه بالمدينة للاشراف عليها، غير أنه عندما رأى فلانغ عن بعد أعلام الامبراطور مرفوعة فوق الأسوار، أدار ظهره وعاد قبل أن يتلاقى مع الفرسان الرومان، الذين كانوا قد باتوا على مقربة منه، ثم طارده الرومان وقتلوا كثيراً من أتباعه، وأسروا مائة من فرسانه كاملي السلاح، وحفظ فلانغ من المخاطر سرعة حصانه، فقد كاد أن يقع بالأسر، وبعدما حقق الرومان هذا النجاح عادوا إلى مونوبولي.

١٠- ولم يكن دوكاس، الذي لاحظ أن الحظ يبتسم يومياً للرومان قادراً على الوثوق به كثيراً، بل كان حذراً بشكل معقول من انقلابه، وكان يقول إنه مثل شخص ساذج متقلب يتبع قوماً مسافرين لابد من أن يعود أدراجه، ويدعهم في وسط الطريق، ولهذا كتب رسالة بعث بها إلى الامبراطور، وقد جاء بالرسالة مايلي:

«أيها الامبراطور العظيم، إذا لم يكن قد بقي أماننا المزيد من الصراع

في إيطاليا، فلن يكون هناك حاجة لجيش آخر أو أي شيء آخر، وتعلمون أن كل شيء قد سار بالنسبة لنا حتى هذا اليوم وفقاً لما نبتغيه، حيث سيطرنا على معظم المدن الموجودة، في إيطاليا [أي أبوليا] مع الموجود على خليج ايونيا [البحر الأدرياتيكي]، ولقد كنا نحن المنتصرين في معارك عظيمة بطريقة تليق بعظمة امبراطوريتك والعرق الروماني، وبما أنه مازال أمامنا صراعاً أعظم، (لأن وليم الذي يتولى نهب صقلية، لاشك منزعج جداً بسبب تدمير أتباعه، وهو يقوم الآن بحشد العساكر من كل مكان، وقد قام بانزال أسطول فيه عدد هائل من السفن، على سطح البحر، وهو عازم على حربنا براً وبحراً) علينا ألا نستخف باستعدادات الجزري [وليم]، وألاً نواجه هذه الحرب بسذاجة، خشية أن نخسر سمعتنا ونستعيض عنها بالعار، ثم إنه من المتفق عليه أن النجاحات التي تحققت على أيدي عدد قليل من الرجال، لا بدّ من أن تكون أعظم بكثير على أيدي عدد أكبر، ومع هذا إن الاخفاق يجلب أضعافاً مضاعفة من العار، لأنه كما علمتنا ياصاحب الجلالة إن الهزيمة تدل على جهل بالاستراتيجية لدى المهزوم، ولذلك ينبغي حتى لا يقع شيء من هذا القبيل لنا، نطلب ارسال قوة بحرية أكبر مع جيش بري إلى هاهنا». هكذا كانت محتويات الرسالة.

وبما أن الأمور سارت بشكل طيب لدوكاس في مونوبولي، فقد انطلق من هناك بصحبة قواته كلها، وبعدها استولى صلحاً على أوستيني OS-tuni، هي مدينة واسعة الشهرة بقوتها، سارع بالزحف نحو بلدة أخرى، هي برنديزي، التي كان اسمها القديم تيميسي، فلقد غير مضي الوقت معظم الأسماء القديمة وعسكها، وغيرها إلى أسماء تختلف عن سالفاتها تماماً، أو تختلف بعض الشيء (١٥)، وعندما وصل الرومان إليها [١٤ نيسان ١١٥٦] مكثوا هادئين (لأن اليوم التالي كان يوم عيد الفصح المسيحي) وخیل للذين كانوا في المدينة أن مرد هذا هو الخوف، لذلك

قاموا بحملات متوالية ووصلوا إلى المعسكر، ووقتها انقض الرومان عليهم بدون ارادة منهم، لكن عندما دفعوهم إلى الخلف، عادوا إلى المعسكر.

وهكذا عاد الرومان إلى انشغالهم المتقدمة، يقدمون التبجيل للموسم المقدس، لكن واحداً منهم، واسمه توماس، أصله من أنطاكية، كان منذ زمن طويل قد أصبح من المتعلقين عن قرب بالامبراطور (١٦)، وضع عليه سلاحه، وتقدم من المعسكر على ظهر حصانه نحو السهل، وعندما بات قريباً من المدينة استدعى سادة القوم للنزول للقيام بمبارزة فردية معه، وكان هناك واحداً اسمه أنجيلو، مشهوراً بشجاعته، فعندما رأى توماس يطلب مبارزة فردية، صب سلاحه على نفسه وخرج إلى السهل، وسار حتى بات وجهاً لوجه مع توماس، ثم استولت الحيرة على الذين وقفوا على الجانبين ينظرون نحو رجلين متسلحين بشكل كثيف وعلى درجة عالية من الشجاعة، استعداداً للمبارزة في ذلك المكان، كما لو أنهما في حلبة للصراع، وهمزا فرسيهما، بعدما شرعا رعيهما نحو بعضهما، وخرق رمح توماس ترس ودرع خصمه ووصل حتى الجلد، في حين دفع أنجيلو برمحه فنفذ من خلال ترس توماس، وهو رافع إياه فوق رأسه، وكان هذا العسكري آنذاك قد رفع ترسه ليحمي المنطقة التي حول رأسه، وهكذا خرق الرمح البيضة وجرح جلدة الرأس، وإثر هاتين الضربتين المتبادلتين افترق أحدهما عن الآخر، فعاد واحد منهما إلى معسكر الرومان، ومضى الآخر عائداً إلى المدينة.

وعندما أكمل الرومان الاحتفال بعيدهم، زحفوا ضد المدينة، وعندما تقرر لديهم أنهم عبثاً يفعلون بقذف الأسوار بالحجارة (لأن الرجال القدماء الذين أبدعوا وسائل العناية بأعمالهم العامة، ربما كانوا أكثر تفوقاً في بناء المدن) توقفوا عن ذلك، وشرعوا برماية الحجارة مثل صحون طائرة، تحلق عالياً من فوق الأسوار، لتسقط بعد ذلك داخل المدينة، ولما

أطلقوا الرمية الأولى، كان في المدينة عجوز تعول وتولول جيئة وذهاباً، فأصابتها على رأسها، فشطرت الرأس، وحطمت كل عظم من عظام أطرافها، وارتفع العويل والصراخ، واستولى على الناس مظهر من جرى الاستيلاء على مدينتهم، ونال هذا حتى الذين لم يمتلكوا الشجاعة للذهاب لرؤية تلك المرأة التعيسة، ولدى متابعة الرومان برماية أخرى ثم رمايات، اعتقد كل واحد من السكان الخائفين أن الحجارة باتت فوق رأسه، لكن ليس وفق الطريقة المحكية في الرواية المتعلقة بـ«تانتالوس» (١٧) Tantalus، وشعر الجنود الواقفين للحراسة في الأبراج أن أهل المدينة يخططون لادخال الرومان، ولذلك ذهبوا راكضين نحو القلعة، وفتح السكان الأبواب، وأدخلوا الرومان.

وإثر استيلاء دوкас على برنديزي باستثناء القلعة، قسم جيشه إلى قسمين، احتفظ بقسم في المدينة لقتال الذين كانوا في القلعة، وأرسل القسم الثاني للقيام بأعمال جمع المؤن والغلال، وهكذا عملوا، وقام سكان المنطقة الخصبه المسماة هاليتزيون (١٨) Halitzion بتقدير ما حدث في برنديزي، فقرروا الالتحاق بالامبراطور، والاعتراف بسلطانه لكن قوة صغيرة من الأعداء (كانوا من النورمان) (١٩) كانت تنتظر داخل الأحرش وتربص بالفرسان الرومان الذين يرعون الخيول، وعندما رأت هذه القوة الرومان قد توقفوا وناموا، قاموا بسرقة خيولهم وسوقها بعيداً، ووصلت الأخبار إلى الذين كانوا عائدين من جمع المؤن، فبادر هؤلاء الرومان مسرعين وقاموا بمطاردتهم، فاستردوا الخيول، وأسروا معظم الأعداء، وكان وقتها بينهم رجل ايطالي عالي المقام اسمه سيكيرين Sycheren [سيغر Siger ؟] قد وقع بالأسر، غير أنه بسبب عدم معرفته استطاع أن ينجح أسرته فأطلق سراحه مقابل منحة من الذهب.

١١- وراجت بين صفوف الرومان اشاعات تحدثت عن اقتراب

وصول وليم وهو يقود قوى عسكرية كبيرة برية وبحرية، وبناءً عليه أعدّ الرومان أنفسهم بقدر الامكان، ومكثوا من دون حركة، ولم يأت اليوم الخامس حتى وصل واحد من الفارين من جيش العدو، وأنذر الرومان وأعلمهم بأن وليم بات على مقربة منهم، ومن الممكن ايقاعه بالشباك، وعندما سمع القادة الرومان بهذا، عبأوا قواتهم وأعدوها للقتال، وارتؤي أن من المناسب أن يتولى بازونفيل وجون أنجيلوس اللذان كان برفقتها مجمل قوات المرتزقة، القيام بالقتال البري على أن يرافقهما أيضاً الايطاليون الذين انضموا إلى صف الامبراطور، وبالوقت نفسه يقوم دوкас بالقتال ضد الأعداء بحراً، وقالوا بهذا يمكنهم التعاون ومساعدة بعضهم بعضاً، وعند الفجر زحف دوкас بخطوات سريعة نحو الشاطئ مع الفرسان المسلحين الذين يحيطون به، وجعل السفن تبحر على صف واحد، في حين كانت بقية القوات جاهزة للقتال برأ، وقد تقدمت هذه القوات على تعبئة، ولم تكن السفن الصقلية، التي كانت على مقربة من المدينة، قادرة على دخول الميناء دفعة واحدة (فهذا الميناء كان عريضاً بما فيه الكفاية بالداخل، لكنه انتهى بما يشبه المضيق) ولذلك دخلت بالتعاقب، وانقسمت إلى مجموعات كل مجموعة مؤلفة من عشرة سفن.

ثم إن دوкас خاف من عدد السفن الصقلية، بعدما رأى أن الاسطول الروماني كان صغيراً جداً بالمقارنة (لأنه تألف من أربع عشرة سفينة فقط) ولذلك خطط لشيء كان حسبما يلي:

لقد تدبر صنع رسالة كأنها قدمت من الامبراطور، تذكر بشكل محدد وشوك وصول قوة كبيرة برية وبحرية، وأن هذه القوات ستصل بالتحديد حوالي منتصف النهار، وعندما رفع من معنويات الجند وآمالهم خاطبهم قائلاً: «أيها الجنود، لقد تعهدت أننا سنحوذ النصر أولاً، خشية أن نشارك ببركات النصر مع الذين سيلتحقون بنا مؤخراً ليشاركوا

بالصراع»، ومع انهائه لكلامه لاحظ هذا القائد أن سفن العدو بدأت بالوصول إلى داخل الميناء، فأمر بانشاب القتال، وهكذا بدأت المعركة على الفور، ولم يستطع الصقليون تحمل الرمايات الرومانية من البر والبحر، ذلك أنهم كانوا عرضة للنشاب من على الجانبين، ولذلك تراجعوا، وطاردهم الرومان وقتلوا الكثير منهم، واستولوا على أربعة سفن مع ملاحيتها، بعدما اصطدمت بالأرض، ومرد هذا أن المجذفين فيهم كانوا أكثر سرعة من اللازم، ولذلك اصطدموا بالشاطئ، فكانوا فريسة جاهزة للقوات البرية، وقتل في المعركة ما يزيد على الألفين من الأعداء، وسقط أيضاً من الرومان عدد كبير، ولاسيما واحد من الأعيان اسمه سكارامانكاس Skaramankas ، وكان من الخاضعين مباشرة لإمرة دو كاس فهو عندما شاهد العدو يفكر بالفرار، همز فرسه، وأمسك بدفة مؤخرة إحدى السفن التي كانت تحاول المغادرة، وحاول بالقوة أن يمنع مغادرتها، وبذلك قام بعمل أوسع شهرة من عمل كينيغيروس القديم (٢٠) Kynegiros ، ولدى تأثره بضربات صدرت نحوه من داخل السفينة، اضطر إلى تركها تغادر، لكن بما أنه أعاق نجاتها لبعض الوقت، فقد سبب أسرها من قبل الرومان الآخرين الذين اندفعوا وقتئذ نحوها.

وما ان حقق الرومان هذا النجاح حتى زحفوا ضد قلعة برنديزي، وذلك بعدما اخترعوا آلة اعتادوا على تسميتها «السلحفاة»، وقد دفعوها حتى القلعة، وعندما رآها الذين كانوا واقفين فوق الأسوار ضحكوا بصوت مرتفع، ظانين أن المقصود من هذه الآلة تدمير جزء من منشآت السور، وكان هذا شيئاً غير ممكن التحقيق تماماً، لأن الأحجار كانت شديدة التلاصق حتى أن السور بدا وكأنه مؤلف من قطعة حجر واحدة، لكن عندما أوصل الرومان هذه الآلة إلى الأسوار وألصقوها بها، ولجوا إليها خلال الليل، وحفروا على مقربة من الأساسات، وأخذوا الأوساخ

بعيداً، بعدما وضعت فيها ثم أفرغت من الجانب الآخر، وظلوا متابعين لعملهم حتى تجاوزوا آخر حجرة في الأساسات، ووصلوا إلى الأرض دونها، وهنا أراحوا الآلة، فأوجدوا بهذا ثغرة واسعة، فشحنوها بالأخشاب حتى امتلأت، ودعموا بذلك جزء السور الذي صار معلقاً، وبعدها لاحظوا أن المدافعين من الداخل ظلوا متشبثين بمواقعهم، ألقوا النار في ذلك المكان، والتهمت النيران جميع المواد، وسببت انهيار السور هناك حتى الأساسات، وأدت إلى سقوط الذين كانوا وراء الشرافات، لكن البرابرة تراجعوا إلى السور الداخلي، ولم تضعف مقاومتهم.

١٢- وبينما كان الرومان مشغولين في هذه المسائل، حشد الامبراطور اسطولاً من السفن وبعث به إلى ايطاليا مع جيش بري، وتولى ألكسيوس ابن بنت الامبراطور ألكسيوس الأول (٢١)، قيادة هاتين القوتين، وكان آنذاك يشغل منصب الدوق الأعظم، [الأميرال الأعلى]، وأمره الامبراطور بحشد قوة أخرى ومن ثم الابحار إلى ايطاليا، لكنه أبحر إلى برنديزي دون أن يفعل ذلك، ومرد ذلك أن مجريات الأحداث كانت مخيفة للقيام بمثل هذه الرحلة، وكذلك خشية من المخاطر التي قد تحقيق بهم من العدو.

وبدأ السعد منذ الآن فصاعداً باشاحة وجهه علناً عن الرومان، لأن روبرت صاحب [بازونفيل] بدأ بالتخلي عنهم، وذلك بعدما حارب حتى الآن إلى جانبهم، فهو عندما سمع بأن وليم قادم مع قوة كبيرة، وشهد أن الرومان عجزوا حتى الآن عن اخضاع قلعة برنديزي، تظاهر أنه ذاهب لجمع قوات تساعد في القتال هناك، لكنه لم يعد، يضاف إلى هذا أن الفرسان الذين جاؤوا من تخوم أنكونا Ancona، طالبوا بأن يُدفع لهم في المستقبل ضعف ايجارهم السالف، وعندما أخفقوا في تحقيق مطلبهم غادروا، ولدى سماع وليم بهذا حشد قواته وزحف مباشرة ضد الرومان.

وشرع الرومان يخططون بشأن كيفية ادارة الحرب، فقد رأى بعضهم أن الصحيح هو الذهاب إلى باري، ومن ثم الحصول على الأمن بالتحصن بها، لكن هذا لم يجز على رضا الآخرين، الذين أعلنوا أنه سيكون عملاً جانباً إذا ما انسحبوا، وتخلوا عما كان في أيديهم، وبما أن هذا الرأي بدا هو الصحيح، ومن أجل عدم ترك الوقت يذهب سدى، قاموا ثانية بمهاجمة أسوار قلعة برنديزي، وهدموا قسماً كبيراً منها بوساطة الآلات الحربية، ومع هذا لم يستطيعوا اقتلاع البرابرة، فهؤلاء قد تشجعوا في البداية، وأقلعوا بهجوم على الرومان، لكن عندما ضغط الرومان عليهم بشدة هربوا عائدين إلى الأسوار، ولولا وقوع حادث عرضي أعاق الرومان، لأمكن الاستيلاء على برنديزي عنوة وبكل سرعة، فقد كان الرومان قد اعتلوا فوق الأسوار، وأخذوا يقاتلون الذين داخل المدينة من الأبراج، لكن عدداً كبيراً من الأبراج التي كانت قد تضررت كثيراً من قبل لرميها بآلاف الحجارة، تساقطت إلى الأرض وأوقعت معها كثيراً من الرومان، ولهذا اضطر جيشهم إلى الانسحاب خائباً.

ولاعتقاد الصقليين أن وليم كان بعيداً، وضعوا خطة لتسليم القلعة إلى الرومان وفق شروط، ولكن بما أن السعد قد وعد بخدمة الرومان لوقت محدد، ولشعوره أن هذا الوقت قد انتهى، فقد تخلى عنهم في وسط المدينة، لأنه بينما كان الصقليون يخططون هكذا جاءتهم الأخبار بأن وليم وصل، وبات قاب قوسين أو أدنى مع جيش كبير، ولدى سماعهم بهذا تخلوا عما عزموا عليه، وصعدوا فوق الأسوار، ورفعوا أصوات سرورهم عالياً، وأخذوا يحتفلون وكأنهم قد حققوا فعلاً طرد الرومان.

١٣- لقد كان هذا ما تحقق هناك، وزحف وليم، الذي ألقع من مسينا مع كامل جيشه، مباشرة نحو برنديزي، وفي ذلك الوقت كان اسطوله راسياً قرب جزيرة على مسافة جد قصيرة مقابل برنديزي، وخطط الصقليون لمهاجمة الرومان من الجانبين في وقت واحد، وحال سوء التدبير

— كما أعتقد — مع ما قدر للرومان من هزيمة، بينهم وبين الهجوم البحري فوراً، وقبل أن يظهر وليم لهم ويقف ضدهم، فعندما قاتلوا ضد الطرفين، جلبوا الدمار للمصالح الامبراطورية، وكانوا قد انتظروا آنذاك وصول جيش من بيزنطة، وهكذا أجلوا الهجوم حتى وصوله المنتظر بسرعة، لكن عندما وصلت الأخبار باقتراب وليم، أرغموا وقتها على خوض المعركة ضد الطرفين معاً.

واختار الرومان رجلين مجريين بالقتال هما: يواناكيوس كريتوبليس Ioannakios Kritoples وبيرم (٢٢)، الذي كان من أصل تركي، وبعثوا بهما مع جورجيين ولانيين لمناوشة الأعداء عندما يلتقون بهم، وكان هؤلاء الأعداء قد أقاموا معسكرهم على بعد خمس وأربعين غلوة [خمس أميال ونصف الميل]، وبعد ذهابهم إلى هناك هاجموا العدو وقتلوه في الساقفة، واشتبكوا عن قرب به وقتلوا بعض رجال المؤخرة، وساقوا أمامهم عدداً كبيراً من الخيول من قطار الأثقال، وبعدما انتزعوا منهم واحداً من أعلامهم، عادوا إلى برنديزي، غير أن الصقليين لم يأبهوا بهذا (بسبب أعدادهم الهائلة، لم تصلهم أخبار ما حصل)، وعسكروا بالفعل على مقربة من الرومان، حتى أن الذين كانوا يبحثون عن الأعلاف من الطرفين غالباً ما تصادموا مع بعضهم بعضاً، وخطط الصقليون للمعركة، وكان أسطولهم راسياً في الميناء على مقربة منهم، واقفاً بانتظارهم، إذن على هذه الشاكلة انشغل الصقليون.

وكان الرومان أقل عدداً من جيش العدو، وذلك بسبب الذين تخلوا عنهم من قبل، ثم لاستمرار تناقص قواهم لكثرة حالات الفرار، ولأن عدداً كبيراً من حلفائهم الآخرين قد هجروهم، وبشكل خاص قيام جماعة معتبرة من النورمان كانت مستأجرة من قبل الرومان بالالتحاق سرّاً بوليم، ولاحظ وليم ما كان يجري فقرر الامساك بالفرصة التي توفرت له تلك الساعة خشية أن تفوته بعد وقت، بسبب أنه إما أن يأتي روبرت

صاحب بازونفيل لمساعدتهم (لأنه روي أنه جمع جيشاً وكان عائداً) أو ان نجدة بحرية ستصل إليهم من عند الامبراطور، ولهذا صف وليم جيشه على شكل وحدات وتقدم، ونظراً لأن روبرت قد تأخر، إما عن قصد أو صدفة، قام الرومان بإعداد أنفسهم والتهيؤ بقدر ما هو ممكن، ووقفوا في وجه العدو، وكان مثيراً آنذاك أن ترى قوة صغيرة من الرومان استعدت للقتال مع جميع القوات الصقلية [٢٨-أيار ١١٥٦] [٢٣] ووقف الجيشان لبعض الوقت دون التحام، ثم قفز واحد من الفرسان المرتزقة من بين صفوف الرومان، ووقف بين الصفين، ودعا إلى من يبارزه وينزله بشكل فردي، وهكذا بدأ القتال، واندفع كل فريق ضد الفريق الآخر، وكان النزال قد بدأ عند الفجر، واستمر القتال متوازناً لمدة طويلة، قاتل فيها الرومان بشجاعة، ثم إن الصقليين شقوا طريقهم لتفوقهم العددي، ودفعوا بالرومان إلى الخلف، ووقع كثير من الفارين وأخذوا أسرى، وشق البقية طريقهم إلى المدينة بعد كثير من الجهد والعنف، وكان بينهم القائد ألكسيوس [كومينوس]، أما دوкас الذي ترك خارج الأسوار، فلم يتوقف عن الضرب وتلقي الضربات حتى جرى تطويقه من قبل الأعداء، وأخذه أسيراً، لكن بعد صراع طويل، وعندما أسره الصقليون بات من السهولة بمكان إلقاء الذين داخل المدينة في الشبكة، وكانهم وقعوا في فخ.

إلى هذه النهاية جلب الأحمقان كومينوس ودوكاس شهرتهما المبكرة، وهكذا رجال هذه الأيام: عاش بعضهم وهو مجرد من العلم العسكري، فقاد المصالح إلى الدمار، وعرف آخرون بالصدفة قسماً من العلوم العسكرية، لكنهم أخطأوا في الجزء الأهم، ذلك أن الاستراتيجية فن، وينبغي على من يمارسها أن يكون مرناً ومهراً، وأن يعرف كيف يقوم بالتغيير بالوقت المناسب أثناء كل مرحلة من المراحل، فهناك أوقات ليس من العار فيها الفرار، إذا سمحت المناسبة بذلك، ومرة أخرى

المطاردة بدون توقف، كل ذلك حسب منفعة الفرد، وعندما يبدو أن النجاح مضمون بالبراعة أكثر منه بالقوة، المخاطرة وقتها بكل شيء أمر مأسوف عليه، وبما أن عدداً كبيراً ومتنوعاً من المسائل يستهدف غاية واحدة هي النصر، فالمسألة هي مسألة خلاف حول الطريقة التي يستخدمها المرء للوصول إليه.

وبما أن ألكسيوس لم تكن لديه القوات التي أمره الامبراطور بجلبها، ولو أن الرومان لاحظوا أنهم ليسوا مساوين للصقليين، فحملوا جيشهم على ظهر سفنهم، واشتبكوا مع الأسطول أولاً، وكانوا حققوا النصر عليه بالقوة، وكانوا أيضاً سوغوا بانتصاراتهم في البحر عملية انسحابهم من البر، حتى إذا ما حانت الفرصة، نزلوا ثانية على الأرض وربحوا المعركة في إيطاليا بقوات أكبر، لكن بما أنهم احتفظوا بأذهانهم بفكرة التراجع الحسيية، سقطوا في حماة العار لتعرضهم للدمار مع جميع قواتهم.

١٤- لقد كان هذا ما وقع هناك، وعندما سمع الامبراطور بذلك ظهرت عليه علامات الغضب، خاصة بسبب أن هذا حصل بعد عدد كبير من النجاحات المتقدمة، لأن الفاجعة التي تقع بعد الأعمال المجيدة تجلب العار، وتسبب هذه الأمور بالعادة الحزن الشديد بشكل خاص، لأنها تفتقر كلياً حتى إلى قليل من النجاح، ثم يعقب ذلك دمار لكل شيء، ولهذا كان حزيناً جداً، ومع هذا لم يقهره الحزن، فبعث بألكسيوس [أكسوكوس Axouchos] الذي شغل انذاك منصب بروتوستراتور، إلى أنكونا، ليعمل ثانية في سبيل الاستيلاء على إيطاليا، ولو من البداية، لأن الناس هناك كانوا قد أقسموا للامبراطور، أنهم مع عدم رغبتهم في قتال الملك الألماني، سيتولون حماية أموال الامبراطور والرومان الذين سيعيثنهم إلى هناك مثل حمايتهم لأنفسهم، لكن لماذا اقتنع الامبراطور بالقيام بهذا، هذا مأسوف أحكيه، فعندما كان من قبل قائماً بحملة على كيركيرا، لاحظ أن أمة البنادقة كانت مخادعة وعنيدة، ولهذا

ارتأى أنه من الأهمية بمكان الاستيلاء على أنكونا، فبذلك يمكنه أن يقلل إلى حدّ بعيد من عجرفة البنادقة، ويصبح سهلاً له من هناك شنّ الحروب في إيطاليا، ولذلك توجه ألكسيوس إلى أنكونا وحمل معه كثيراً من المال [١١٥٧]، وأرسل من هناك إلى إيطاليا [أي أبوليا] قسطنطين أوتو، وأندريه كونت إحدى المدن الإيطالية [روبي كانينا - Rupe Ca-nina] وكان شجاعاً جباراً، ومتمكناً بالأقدام، وحشد ألكسيوس قوة كبيرة من المرتزقة، فأخضع عدداً كبيراً من المدن للرومان (٢٤).

ثم حدث شيء كان كما يلي:

بما أن أسقف روما [البابا هادريان الرابع] سلف له ووافق على تحالف مع وليم، فعندما لاحظ هذين الرجلين [قسطنطين وأندريه] ماضيان خلال منطقة روما، عارض ذلك بشدة، غير أن بعض أعيان روما، الذين تقدم لهم الموافقة على إقامة صداقة مع الرومان (لأن الامبراطور مانويل اعتاد على التحالف مع عدد كبير من هؤلاء) أثاروا الشعب ضده، وطلبوا راية امبراطورية، وتلقوها بتشريف عظيم، وسمحوا عن طواعية لكونتوستيفانوس بتجنيد كل من يرغب بذلك، ولغضب الأسقف مما حدث وضع الناس تحت الحرمان [الكنسي]، وهو الشيء الوحيد الذي كان بإمكانه أن يفعله، قائلاً إنه لا يوجد ما يجمع بين روما الجديدة [القسطنطينية] وروما القديمة، ذلك أنها انفصلا عن بعضهما منذ زمن قديم، «وبالحري علينا أن نقاتل إلى جانب أمير الصقليين، وإنه لإثم إذا لم نذهب إلى عون الرجل الذي هو عضو في جماعتنا، فضلاً عن ذلك إنه الرجل الذي يناضل بصعوبة ضد واحد أقوى منه نفسه»، وقام واحد من تدبر شؤون الامبراطور، بعدما خاف من العقوبة، بعكس مواقفه، ومضى للانضمام إلى جانب الأسقف، لكن القائدان الرومانيان شداه بكل عنف، وشهرا به لحرقه عهوده، وعلقاه بطريقة وحشية معدومة المثال، فقد علقا سلاحه وسابغته وحصانه بوساطة حبال، ربطوها إلى

شجرة، وحشدا قوة بشكل علني ضد الأسقف حتى أرغماه على اعفاء الناس من العقوبات، وهكذا حظيت شؤون الرومان ثانية بحظ عظيم (٢٥).

واستولى الرومان حرباً على مدينة نالت اسمها من القديس جرمانوس [سان جرمانو، كازينو الحالية]، ووضعوا أيضاً ثلاثمائة آخرين تحت حكم الامبراطور، ومن الممكن قراءة اسم كل واحد من هؤلاء من قبل كل راغب، لأنهم مثبتين خارج القصر القائم جنوب [كذا] المدينة، وهو القصر الذي بناه هذا الامبراطور، وذلك بالاضافة إلى القصور القديمة [أي بلاشرين] (٢٦)، وإذا كان قد دون هناك أكثر من أسماء هؤلاء، فتلك مبالغة فيها ادعاء باطل بطريقة مفضوحة من قبل الذين ادعوا مثل هذه الأعمال، كما هي الحال عادة مع العامة، وبسبب هذا سمعت أنا مرة الامبراطور نفسه يعبر عن غضبه تجاه ذلك، هذا وأنا الآن لأدري هل أزيلت هذه الأسماء أم ما تزال باقية.

١٥ - وهكذا بدت الأراضي الايطالية وقد دنت من أن تصبح ثانية خاضعة للرومان، لكن ألكسيوس كومينوس ودوكاس وبقية القادة الرومان، الذين سيقعون أسرى في قبضة صاحب صقلية، دمروا القضايا ثانية [١١٥٨]، ذلك أنهم تعهدوا بأشياء كثيرة إلى الصقليين، لم تكن برضى الامبراطور، وبذلك استلبوا من الرومان أعظم الانتصارات وأكثرها نبلاً، فما الذي يمكن للانسان أن يوافق عليه، عندما تكون الأغلال ممسكة به، وهو سجين في زنانات تحت الأرض؟ لقد فعل الصقليون هذا، وهكذا قام الرجال الذين كانوا هناك — وكانوا يتوقعون أن يقوم الامبراطور بصنع سلام مع وليم — بانتزاع المدن من الرومان وحرمانهم منها بكل سرعة.

وعندما سمع الامبراطور بهذا، وفهم الذي حدث، بعث برسائل إلى

صقلية، وكتب مايلي إلى الرومان الذين كانوا بالسجن:

«إنني أتساءل أيها السادة كيف يمكنكم متابعة ممارسة الدناءات في الأعمال، لأنكم هكذا قمتم من قبل بتدمير الانتصارات السالفة والرائعة، وجلبتم إلى أنفسكم القدر الذي أنتم الآن فيه، والآن، عندما كان آخرون متلهفون إلى أن يعالجوا بالحرب وبعون من الرب، ماقمتم من قبل بافساده، تقفون في الطريق، ألم يخطر ببالكم أن الصقليين يريدون بهذا إعاقة تقدمنا نحو الأمام؟ لأنه من هو الذي بين الايطاليين، سيسمع أن الأرض التي نمتلكها اليوم سوف ترد إلى وليم من قبلنا، من هو هذا الذي عندما يسمع بذلك، لن يشور علينا ويمضي مباشرة إلى التحالف مع وليم؟ لن يكون هناك من أحد، باستثناء الحمقى والذين بدون عقل، وهم كما يحدث كثير، سألكم، أخبروني بحق الرب، متى بدت أرض آباءكم أكثر نبلاً بالنسبة لكم؟ متى، بعدما أصبحت ايطاليا وجزيرة صقلية موضوعة تحت سلطانكم، أم عندما كنتم أبطالاً متميزين تم انقاذهم بعقرية من قبل أبناء قومهم، أم عندما تعودون إلى بيزنطة أبطالاً شجعاناً للرومان، ويكون ذلك بمثابة مشهد ترحيب بالنسبة لزملائكم؟ أو متى عندما نكون تخلينا عن لاشيء، وربحنا لاشيء، فقط حسبها تحدد أيمانكم لوليم، أو عندما نستدعيكم إلى هاهنا؟».

لقد كان هذا ماكتبه للرومان، أما ماكتبه إلى وليم فكان مايلي:

«لاتظن أيها السيد النبيل، أننا سوف لن نلاحظ لماذا تمّ تدبير هذا من قبلك، مادام ليس من الضروري تقديم أعدار لما تمّ صنعه تحت الاكراه، وعلى هذا إن ماتعهد به هؤلاء المكبلين، والرجال المسجونين مرفوض من قبلنا كلياً ولا نرضى به البتة، ولن يتوقف الرومان عن الحرب في ايطاليا حتى يضعوها مع الجزيرة كلها تحت سلطاننا كما كانت من قبل».

وعندما تسلم الذين كانوا يحيطون بوليم الرسالة، ردّوا عليها كما يلي:

«إذا ما كنتُ ترغب، أيها الامبراطور الجليل، أن تفرض عقوبات علينا بسبب الأخطاء التي اقترفت بحق جلالتك من قبل، فلقد عذبت إيطاليا فوق ما هو ضروري، فلقد استوليت على ما لا يقل عن ثلاثمائة مدينة في وسطها، بعضها لم يكن داخلاً في المملكة الرومانية منذ زمن طويل مضى، ولقد نلت شهرة لم ينلها غير جلالتك منذ أيام جستنيان، الامبراطور السالف للرومان، نحن نطلب منكم مقارنة ذنبنا (نعني عندما استولينا على كورنثا ويوبويا) مع الانتصارات الرومانية في إيطاليا، التي استولت منذ زمن طويل على ممتلكات كثيرة هناك ونقلت كثيراً من المقتنيات، وغالباً ما ملأت الأرض بثلاثة أضعاف من الدماء، ثم إنكم لم تقتصروا في عملكم على مجرد نهب الكثير من المدن بل حولتوها إلى رعية لكم. أيها أعظم بالنسبة لكم؟.

وإذا لم ترغب بقياس هذه الأشياء ضدنا، نحن الذين أدنى كثيراً النسبة لجلالتكم، إلتفت وعد بالذاكرة إلى الأباطرة القدماء، وقدر معي إعات الرومان في الأيام الماضية، أم أنه لم يحدث أن قام أحد بتسييب الاضطراب للمملكة الرومانية؟ أو لم تكن دولتك هي التي عانت كثيراً على أيدي شعوب الترك واهلون [البشناق]، وفيما بعد على أيدي روبرت [غويسكارد] الذي عبر من إيطاليا إلى إبيدامنوس Epidamnos [دورازو، حالياً دوريس] وناهض جدك [ألكسيوس الأول] بعدد كبير من المعارك؟ فلقد تمكن جدك بكل صعوبة، لابل نادراً ما تمكن من دفع روبرت من الأراضي الرومانية، غير أنك استطعت أن تسيطر تقريباً على كل مالدينا، وإذا ما كنت قد فعلت هذا انتقاماً لنفسك منا، فلقد حصلت على ما فيه الكفاية من انتصارات، ولقد عاقبتنا بما فيه الكفاية.

وبما أنك أنت الذي دست ترابنا، ليس من العار أبداً قبول عروض السلم، كما أن ذلك لا يتخطى الفخار أبداً، وإنك — في حال القبول — سوف تتسلم على الفور جميع الرومان، الذين وقعوا في أسرنا، مادام القدر

هو الذي أعطانا مثل هؤلاء الرجال العظماء، مع أنك لست محقاً بغضبك علينا، لأنه ليس من المعيب للانسان الذي يخوض الحرب أن يتخذ اجراءات ضد أعدائه، هذا ويبقى أنك محق في اثاره الحرب ضدنا ولسبب واحد، لكن ما الذي اقترفناه من ذنب تجاه يوبويا؟ لأنك — كما قلنا — تجاوزت التوزيع العادل، وعلى هذا إذا ماكنت راغباً في فرض عقوبات علينا بسبب ماقمنا به في أراضيك، فلقد فعلنا مايساويه في الدفاع ضد جلالتك، إنها إذا ماأردت اثاره الحرب دوماً ضد شعبنا، لقد حان الوقت لتقدير هذا الأمر فيما إذا كان مناهضاً للقوانين الانسانية، لأنه انسانياً أن تقوم بقياس الحروب بأسبابها، وربما يقول انسان آخر ان تمضي أبعد فذلك عمل وحشي، لكن هذا لن يقال من قبلنا، نحن نطلب منك إبرام معاهدة وإنهاء هذه الحرب».

وبعدما استعرض الامبراطور هذه الرسالة عدة مرات، وافق على ما قيل فيها، وعندما تسلم مانويل الأسرى الرومان واسترد أسلاب الحرب التي كانت هناك، وحصل بالاضافة إلى ذلك على أيان أداها وليم أنه سيكون حليفه فيما يتعلق بقضايا الغرب، عند ذلك أنهى الحرب، وقام بعد وقت قصير بشريف وليم بأن جعله ملكاً، حيث أنه لم يكن قبل ذلك كذلك، واحتفظ نحوه بعواطف جيدة، حتى انه عندما استفرغ وليم ماكتب له من حياة، واتصل أخوه به [مانويل] وطلب تقديم المساعدة له ليحكم صقلية، لم يستقبله أبداً (٢٧).

١٦- وهكذا وصلت الانشغالات الرومانية في الحروب الايطالية إلى نهايتها هناك، وبما أن الشؤون في آسيا كانت متحركة منذ أمد، بينما كان الامبراطور مايزال يتابع الصراع في ايطاليا، ولذلك كان مهموماً كثيراً بشأن المسائل هناك، لكنه كان مستغرقاً كلياً بمشاكل ايطاليا، ذلك أن سلطان الأتراك (٢٨) كان قد استولى على كل من مدينتي بونورا Pou-noura وسبيلا (٢٩) Sibyla وكانتا من قبل خاضعتين للرومان، كما

أن طوروس السالف الذكر كان قد استولى على عدد كبير من مدن كليكية، وقام في الوقت نفسه يغني—باسان، الذي كان مقدماً للأتراك وحاكماً لمنطقة كبدوكية، بالاستيلاء على أونايون Oinaion [أوني] وبوري Pourae [بافرا]، وكلتاهما من مدن بحر بنطش (٣٠١)، وقام الامبراطور بإرسال ألكسيوس غيفاردوس [حوالي ١١٥٨] ضد السلطان، فاستطاع استرداد المدينتين المذكورتين، ونجح الامبراطور في الوقت نفسه في جهوده في جعل يغني—باسان يتخلى عن حملة ضد الأراضي الرومانية، وأن يغدو حليفه المخلص، ومن ثم خطط ليقوم بنفسه بحملة إلى كليكية.

وحدثت آنذاك في بيزنطة الحوادث التالية: كان هناك لاويًا، من الذين ندعوهم قسس، كان اسمه باسيل، كان معهودا إليه القيام بنشر وتفسير الكتابات المقدسة للجماهير في أوقات الاجتماعات الدينية في كل مكان، وقد أراد أن يقوم بشكل علني بذيء بالاساءة أثناء الطقوس إلى بعض الذين تخصم معهم مؤخرًا، لاسيما ميخائيل السالونيكى ونقفور الذي كنيته باسيلاكوس (أوباسيلاكس)، وكان واحداً من هذين الذي اسمه ميخائيل آنذاك أستاذاً للبلاغة يتولى شرح وعرض الكلمات المقدسة للأناجيل في كنيسة آيا صوفيا، ونظر إلى الآخر نظرة تقدير من قبل رجال الأدب، خاصة لبراعته في تأليف الخطابات، وفي الحقيقة كان مدرباً بشكل بارع في كثير من أقسام البلاغة، وعمل هذان الرجلان في هذه الأشياء، وكانا ينزعجان إذا ماريا انساناً متقدماً في المعارف العلمية، ومن ثم يقومان بالدس ضد مثل هذا الانسان، وبذلك أصبحت الأسباب لمضار بالغة لحقت بهما وبكثير غيرهما.

لأنه عندما كان باسيل يؤدي قداسه العادي في كنيسة الرسول يوحنا اللاهوتي خارج المدينة، ذهباً للاصغاء إليه، وبنوايا تأمرية عدوانية مليئة بالشور، لأنه عندما كان ماضياً في القراءة لواحد من نصوص الانجيل،

يخيل أنه أعلن أن ابن الرب والروح كانا واحداً، بدون تمييز وأنها تلقيا أضحية قربان التعميد مع الأب «٣٠»، وقاما على الفور بالتمسك بهذه العبارة، وصارا يصعدان وينزلان وهما يستهزئان بها، قائلين إن باسيل أعطى طبيعتين [تتعلقان بحال المسيح]، إذا كان واحد قد ضحى وتلقى الآخر الأضحية، ووافق آخرون ممن احتلوا مكانة ونالوا تقديراً لعلمهم على هذا التفسير، وخاصة سوتريكوس Soterichos الذي كنيته بانتيوجينوس Panteugenos ، وكان رجلاً قد تفوق على الآخرين في تلك الحقبة في المعرفة وفي البراعة الخطابية، وكان قد نال عرش البطريركية في انطاكية، لكنه لم يكن رسم بعد، ودافع سوتريكوس عن عقيدتهما ليس فقط باللسان والفم، ولكن بحشد كمية هائلة من الأدلة المنطقية، التي إذا عرضت على شكل حوار، تتملك شهباً عظيماً بأفلاطون، ووحيد في تصنيفه بين كثير من الأشياء المتناقضة، وبسبب ذلك خضع للخلع من العرش البطريركي هو وكل الذين تعاونوا معه، وكان ذلك عندما تولى الامبراطور الحكم على المسائل موضع الخلاف، واسترد باسيل مرتبته ثانية، ذلك أنه كان قد فقدها من قبل، ومع هذا لقد خسرها ثانية في وقت متأخر، عندما اتهم أنه غير أرثوذكسي العقيدة (٣٢).

١٧- وما ان وصل هذا الخلاف اللاهوتي إلى هذه الخاتمة حتى انطلق الامبراطور ضد طوروس، ذلك أنه عندما كان مشغولاً—كما ذكرنا من قبل— بشؤون الغرب، قام هذا البربري الذي كان ينتظر هذه الفرصة، بالاستيلاء تقريباً على مجمل مدن كليكية، ذلك أنه كان أعظم مهارة من أي انسان في الامساك باللحظة المناسبة، وقادراً على تحريك القضايا.

لهذا السبب ذهب الامبراطور إلى آسيا، وكذلك لأسباب أخرى أنا مقبل على حكايتها: عندما كان ريموند صاحب أنطاكية قد انتقل من بين الأحياء، أقدمت زوجته كونستانس على منح نفسها والممتلكات الأنطاكية إلى الامبراطور، لكن—كما سلف بنا القول— عندما أرسل

الامبراطور القيصر جون روجر للزواج منها، غيرت رأيها بموافقة عامة من الأنطاكيين، وارتبطت بالزواج [١١٥٣] بواحد اسمه رينودي شاتلون [أرناط]، ذلك أن الانطاكيين كانوا يخشون أنه عندما تتزوج المرأة من روجر سيصبحون تابعين للرومان ومن رعاياهم يدفعون الضرائب لهم، وعندما لم يستجب الامبراطور لما طلبه أرناط منه، حاول هذا أن يخيفه، وعرض كثيراً من التهديدات، وأكد أنه يريد المال، وهنا قام بما يلي [١١٥٦]:

بعدما قام ببناء عدد من السفن، أبحر بها نحو قبرص، وقاتل الذين فيها بطريقة القراصنة، وحمل من هناك كميات هائلة من الثروات، وفي البداية تمكن ابن أخت الامبراطور جون (كومينوس البروتوسياسستوس) الذي كان آنذاك حاكماً للأرض ومعه ميخائيل براناس والذين كانوا متمركزون هناك للدفاع عنها، من رده والتعامل معه برحولة، ثم إنه عندما كان براناس يتولى مطاردته باندفاع لم يكن ضرورياً عند ليكوسيا (نيقوسيا)، تقدم جون للالتحاق به، فوقع الاثنان بالأسر بأيدي أرناط، وبناءً على هذه الأحداث زحف الامبراطور إلى كليكية (٣٣١).

وعندما وصل إلى فريجيا الصغرى (٣٤١)، اصطدم بالأتراك هناك، فهزمهم بالقتال، وقتل منهم كثيراً، وعاث فساداً بالمنطقة المجاورة التي كانت عائدة للترك، وفعل ذلك وهو مسرع نحو كليكية، متظاهراً بالحرب ضد الأتراك، فقد ارتأى أنه بهذا الأسلوب يمكنه أن يفاجأ طوروس وهو غافل، ومن أجل أن يصل بشكل غير متوقع، قام زيادة على ذلك بالعمل كما يلي:

أمر ألكسيوس كاسيانوس Kasianos ، الذي كان يحكم آنذاك منطقة سلوقية بأن يقوم بحشد القوات المحلية وأن يكون مستعداً، ثم اختار الجزء الأفضل تسليحاً من جيشه وبادر مسرعاً إلى سلوقية، وأمر

بقية الجيش الروماني الذي بقي في بعض الأماكن حول أضاليا، أن يعتني بخيوله، لانتشار مرض كان مؤثراً بشكل خاص على المخلوقات النادرة، فقد هاجم حوافر الخيول وسبب لها قروحاً مؤلمة.

وعندما وصل إلى سهول سلوقية (١١٥٨) لم تكن القوات جاهزة حسبها كان قد أمر (لأن ذلك كان قد أهمل من قبل ألكسيوس) فتحول نحو شيء آخر، ذلك أنه كان متشوقاً لالقاء القبض على طوروس بكامل قواه، وقام بإرسال ألكسيوس أمامه حتى يتمكن بشكل ما من اعاقه طوروس، الذي التقى به هناك، في حين قام هو [مانويل] بالزحف خلفه وهو يقود قوة لم تزد على خمسمائة رجل مسلح، وكان هذا الطاغية سيقع بسرعة أسيراً بأيدي الرومان، لولا أن القدر تدخل بشكل غير متوقع وأنفذه، ذلك أن واحداً من المتسولين [الحجاج] الذين كانوا بأعداد كبيرة من الأجناس اللاتينية، ذاهبين إلى فلسطين، وكانوا قد عانوا أثناء تجوالهم بالجبال والحصون ولم يدعوا شيئاً لم يحتاجوه بحشودهم، وقد التقى هذا اللاتيني بالامبراطور، وحصل منه على قطعة ذهبية، ثم بادر مسرعاً بقدر ما أوتي من قوة إلى طوروس وحذره من دنو الامبراطور، ولدى سماع طوروس بهذا اندهش، غير أنه لم يفش الأخبار إلى أحد من الناس باستثناء توماس وكوركيس اللذان كانا مقربين منه، وسارع بالفرار ملتجئاً من مكان إلى آخر.

ودخل الامبراطور إلى كليكية، غير أنه لم يعثر على طوروس في أي مكان، وقد تمكن من الاستيلاء على حصن لاموس [على اللاموس جي]، وكان جيد التحصين، ومع ذلك أخذه بدون قتال، ثم استولى على كستراموس وعين زربة، وهي مدينة واسعة الشهرة، وزحف نحو الأمام فعات فسارداً في المنطقة وأخضع لونغينياس Longinias وجميع المنطقة المحيطة بها، وعبر يريد طرسوس التي كانت حاضرة تلك الدولة، فاستولى عليها بسهولة، وقام بإرسال بعض عساكره إلى تلي [توبرا كل

Toprakkale تل حمدون] وهو حصن حصين جداً، فوضعه تحت سلطة الرومان (٣٥)، لكن كيف استولى على طرسوس التي لم يكن من السهل الاستيلاء عليها بألاف الحملات، كيف فعل ذلك في يوم واحد، هذا ما أنا مقبل على حكايته:

لم يرغب الامبراطور بالإقامة طويلاً هناك، لذلك توجه نحو مدن أخرى، غير أنه أرسل ختنه ثيودور باتاتزس Batatzes ليتولى حصارها، وقبل أن يصل ثيودور إلى المدينة، تخيل الذين وقفوا فوق الأسوار أن الامبراطور هو الذي يقترب منهم فأصابهم رعب منقطع النظير، حتى أنهم ألقوا بأنفسهم من الأبراج، فمات هؤلاء الأشقياء ميتة تعيسة، وبهذه الطريقة تمّ على الفور الاستيلاء على المدينة.

١٨ - وهكذا تمّ الاستيلاء على طرسوس، ولاحظ طوروس وأرناط هذا، فلم يتجاسر على التوجه نحو الامبراطور رسلاً لنفسيهما، لأنها كانا يعرفان عظيم ما اقتراه من ذنوب، ولهذا آثرا بعث بعض الرسل من بين الأعيان (٣٦) إليه، مع أمل أن يصلحهما الامبراطور ويغفر لهما، ونظراً لاختفاقهما فيما ابتغياه، وافق أرناط، الذي طوقته المصاعب من كل الجهات، على تسليم قلعة أنطاكية إلى الامبراطور، إذا ما عفي عن جرائمه، وكان من حيث المبدأ مدركاً لسوء مشاعر أسقف أنطاكية نحوه، وهو رجل من بني قومهم أقاموه راعياً لأنفسهم، وأعطوه لقب بطريك، وكان قد نشب نزاع بينه وبين أرناط للسبب التالي:

لقد شعر أرناط — كما ذكرنا من قبل — بفقر شديد، فقرر نهب قبرص، والتقى أرناط بالبطريك على انفراد، وحيث أنه كان يعلم أنه ثري جداً، فقد طلب منه منحه بعض المال، وبما أنه لم يكن قادراً على الحصول على أي مبلغ منه، قام بانتزاع ثياب البطريك وأخذ منه أرديته، ثم قام بضربه بالعصا مراراً، وبما أن الموسم كان فصل الصيف في ذروته، قام بدهن

جروح البطيريك بالعسل، وتركه يحترق بالشمس، وهكذا استقر الذباب والبعوض والدبابير والنحل وكل حشرة ماصة للدماء، حول جسده العاري تماماً، ومصت دمه، وأمام هذا العذاب استسلم الرجل، ووافق على التنازل عن جميع ثروته إلى أرناط، وقام أرناط حتى ينال رضا [البطيريك] بجعله يرتدي جميع ملابسه المعتادة، ثم أركبه على ظهر حصانه وقاده خلال المدينة، وقد سار إلى جانبه وهو ممسك بالخزام المتدلي من سرجه، ومع أنه فعل هذا، فقد كان البطيريك أكثر غضباً على أرناط، وبات ينتظر الفرصة لينتقم منه، وقد كتب مراراً وتكراراً إلى الامبراطور وعرض عليه القيام بخيانة أرناط لصالحه، وعندما رفض الامبراطور هذا العرض (ولأنه كان يؤثر الريح بوساطة الحرب لابوساطة الخيانة) تحلى عن هذه المحاولة.

ولدى معرفة أرناط بهذا، قام بالوعد بالأشياء السالفة الذكر إلى الامبراطور، وعندما لم يأذن الامبراطور بقبول ذلك، تصرف أرناط وفق الأسلوب التالي:

رفع الغطاء عن رأسه.. وشمر عن ذراعيه حتى المرفقين، وسار داخل المدينة حافياً مع حشد من الرهبان، ثم ظهر أمام الامبراطور، وقد لف حبلًا حول عنقه، وحمل سيفاً بيده الأخرى، وأقيمت دكة رائعة هناك، ووقف أرناط بعيداً عن الخيمة الامبراطورية، وكأنه غير متجاسر على الاقتراب منها، بينما اقترب من الامبراطور حشد من الرهبان —الذين لم يكونوا رهباناً— وكلهم حفاة، ورؤوسهم عارية، وجثوا على ركبهم، وهم يبكون والدموع تنحدر من مآقيهم، وقدموا نحوه أذرعهم، وفي البداية رفض الامبراطور، لكن فيما بعد استجاب لكثرة الرجاءات، فأمر الأمير أن يتحرك نحوه، فمشى نحوه بالأسلوب الموضح من قبل، فغفر له ذنوبه وتجاوز عن آثامه العظيمة، وفي الوقت نفسه ربط أرناط نفسه بعدد كبير من الأيوان تعهد بها بأشياء كثيرة، منها أنه سيعمل وفقاً لارادة

الامبراطور، وسيقبل بشكل خاص بالعادة القديمة في ارسال أسقف إلى أنطاكية من بيزنطة.

وفي الحقيقة استولت الدهشة على الذين كانوا حضوراً، لاسيما هؤلاء الذين جاؤوا رسلاً من دول آسيا: من خوارزم، وزوزن، وأقباط، وجميع ميديا وبابل، اللتان يعرف حاكمها باسم السلطان الكبير (٣٨)، ومن نور الدين أتابك حلب، ويغي—باسان مقدم الترك، ومن أباسغاي -Abas gai ومن الايبيريين [الجورجيين] لابل حتى من الفلسطينيين [الدول الصليبية] ومن أرمن ماوراء ايزوريا [أي مملكة أرمينيا السالفة شمالي بحيرة وان].

١٩- لقد كان هذا ماوقع هناك، وقام بلدوين [الثالث] ملك فلسطين بمراسلة الامبراطور وطلب الالتقاء للتباحث في بعض الأمور الهامة كما قال، لكن العمل هو المسوغ والمطلب، فقد كانت عينه متمركزة على إمارة انطاكية، التي وقعت على مقربة منه، ومع ذلك هو لم يعرف كيف يمكنه نيلها، وبما أنه لم يكن قد عرف بعد شيئاً عما حدث لأرناط، فقد أشار على الامبراطور ألا يطلق سراح أرناط أبداً، فعندما لا يكون أرناط موجوداً يمكنه التعامل مع الانطاكيين وجعلهم بمثابة رعية له، لاسيما وأنهم كانوا قد أنقذوا من قبله، أو على الأقل يمكنه أن يفرض نفسه على الذين كانوا يرفضون أن يحكموا من قبل الفريقين [أرناط ومانويل] (٣٩).

وما ان فرغ بلدوين من التخطيط لهذه الأشياء، حتى وصل إلى أنطاكية، وخاطب الانطاكيين مخادعاً لهم بتذكيرهم كيف جاء من فلسطين من أجل منفعتهم، وأنهم مدينين له بفضل عظيم، وعندما وافقوا على ذلك، طلبوا مرة ثانية من الامبراطور استقباله، ولادراك مانويل لنوايا الرجل، فقد رفض في البداية، مدعياً أن بلدوين لن يتلقى

التحيات الرسمية المناسبة، ولا الترحيب، إذا كان سيتباحث معه بينما هو غارق في وسط الأعمال العسكرية، لكن مانويل وقد رأى بلدوين قد ازداد اصراراً والحاحاً بالرجاء حول المواضيع نفسها يومياً، وافق أخيراً، وأمره بالقدوم، وعندما توجه للقاء الامبراطور، وخرج من المدينة أحاط به الانطاكيون، ورجوه أن يبذل المستطاع من أجل مصالحتهم مع الامبراطور ورضاه عنهم.

وحدثت في الوقت نفسه أشياء كانت كما يلي في معسكر الامبراطور:

كان هناك واحداً من أمناء سر الامبراطور اسمه ثيودور وكنيته ستيبيوتس Stypeiotes ، وكان ستيفن هذا من المقربين بشكل خاص من الامبراطور ومعهد إليه بوظيفة الدوادر، وهي وظيفة رئيسية، ولكن عندما برهن هذا التبعس أنه سيء النوايا نحوه ومختل فقد لسانه مع عينيه، ذلك أنه تنبأ لعدد كبير من الناس وأخبرهم على شكل مايفعله الأنبياء، أن مدة حياة الامبراطور قد شارفت على الانتهاء، وأعلن أنه يتوجب على الشيوخ الرومان إعطاء السلطة إلى واحد ليس في شرح الشباب وممتلىء بالفخار، بل إلى رجل مسن أصيل، قد تجاوز مرحلة الشباب، من أجل أنه عندما تجري مناقشته، أن يتولى توجيه أعمال الدولة بشكل ديموقراطي، وهكذا انقضت الأمور بالنسبة لثيودور، وحدث أيضاً بعد ذلك أن رجلاً اسمه جورج وكنيته بيهوجرجس -Pyr rhogeorgios ، وكان مسؤولاً عن الأبواق الامبراطورية، وكان يدعى عادة بـ Primikerios البلاط (٤٠)، هذا الرجل اختلف مع الامبراطور حول مسائل هامة وكبيرة، ومع أنه تمتع ثانية برضاه عنه، ولم يعان من أية أضرار، لكنه فقد وظيفته فقط.

٢٠- ولدى معرفة الامبراطور باقتراب الملك أرسل بعض الأعيان إلى أحد الأماكن، وأرسل البقية لاستقباله، والسير خلفه بأفضل طريقة مميزة،

كما وبعث ابن ختنه لتقديم التحيات له ولتشريفه بالشكل اللائق حتى يصل إلى حضرة الامبراطور، ثم شرفه مانويل ورحب به بطريقة تليق بعرش داوود، لكن بلدوين تصرف بشكل آخر فيه عجرفة مردها إلى شعوره بأهميته، أو لما جبل عليه من رعونة، ذلك أنه عندما وصل إلى الخيمة الامبراطورية يحيط به حملة الصولجان الامبراطوري والاستقرائية الرومانية، ترجل من على ظهر حصانه حيث كان من عادة الامبراطور أن يفعل ذلك، وتقديراً من الامبراطور وفهماً لتفاخره غض النظر عن كثير من هذه الأشياء التي تتعلق بمكانته، ومع ذلك أولاه الأهمية، وتوجه إليه بالخطاب، وقدم له مقعداً منخفضاً ليجلس عليه، وتحادث معه، وكرمه بدعوته إلى مائدته.

وبعدما عقد أرنات هذه الاتفاقيات، لم يرض الأنطاكيون بارسال قوات فرضت عليهم لمساعدة الامبراطور في الحرب، لأن قواتهم القديمة قد اضمحلت وزالت من المدينة، وكذلك لم يعجبهم ارسال أسقف إلى انطاكية من قبل بيزنطة، ولهذا السبب جاءوا يشتكون إلى الامبراطور، وتدخل بلدوين لدى الامبراطور حول هذا، ولاحظ بلدوين أن هذه المطالب لم ترفض بشدة لذلك جعل الرسل يلقون بأنفسهم على قدمي الامبراطور، وتفحص الامبراطور وفكر حول أي الشرطين فيه كرامة أعظم للرومان، وسمح لهم مانويل على الفور بالاسهام بقوات أقل، (لأنه ينجم عن طلب شيء يتجاوز طاقات الانسلان في كثير من الأحيان مصاعب جمّة، ويكفي على العموم تقديم شيء رمزي للدلالة على التبعية والخضوع في الوقت نفسه) غير أنه قال: لا يمكن قبول الأسقف من أي مكان غير بيزنطة، وقبل الانطاكيون هذا بكل سرور، وعادوا إلى المدينة.

٢١- (أ) (٤١١) وهكذا ختمت مسألة أرنات هناك، وعزم الامبراطور بعدها على مهاجمة طوروس، وهرب طوروس في البداية إلى مكان مهجور في جبال طوروس، ثم إنه عندما تدخل بلدوين لصالحه لدى الامبراطور،

جاء إلى المعسكر الروماني بمثابة تابع تائب، ورحب به الامبراطور، وأدخله ضمن الرعايا الرومان، وهكذا ألغى الحرب.

وبما أن الامبراطور كان مقبلاً على الدخول إلى مدينة أنطاكية [نيسان ١١٥٩]، خاف الانطاكيون — كما يبدو — من أنه حالما يتم السماح للقوات الرومانية بالدخول إلى المدينة، فإن هذه القوات ستحاول طرد الانطاكيين منها، وهكذا لم يعرفوا كيف يصرفون الامبراطور عما عزم عليه، فاخترعوا بعض الأعدار الزائفة، وقدموها له، وكانت هذه الأعدار أن بعض الأشخاص من المتهورين من بينهم قد تأمروا انه عندما يدخل الامبراطور المدينة مجرداً من السلاح (لأنه لم يكن غير ذلك لاثقاً) سيتولون بعض الأعمال الخيانية ضده، وفهم الامبراطور الخدعة، فأعلن لهم أنه لن يحدث شيئاً من هذا القبيل، وأوضح بجوابه للذين كانوا من حوله كيف أن ذلك لم يكن ممكناً، ليس فقط لأن الملك كان سيقوم بالاستعراض أمام الامبراطور، بعيداً عنه وهو مجرد من السلاح، بل لأن أرنات مع آخرين سيحيطون بالامبراطور ممسكين بلجام فرسه وبأطراف سرجه، وذلك أثناء سيرهم على الأقدام مجردين من السلاح، وستحيط بالوقت نفسه بالامبراطور وتتولى حراسته جماعة كبيرة من حملة الفؤوس من البرابرة [الحرس الفريجي] وذلك وفقاً لما جرت عليه العادة.

وهكذا رفض هذه المعاذير، لكنه عندما كان على دخول المدينة، لبس درعين فوق بعضهما، معتمداً على قوة جسده وقدرته على التحمل، ولبس فوق الدرعين رداءً مزيناً بالأحجار الكريمة لم يكن أقل وزناً مما كان تحتته، كما وضع على رأسه تاجاً وأشياء أخرى اعتاد عليها الأباطرة، وأنا مندهش حول هذا الأمر، فبعدما احتفل بالنصر بالطريقة التي اعتاد عليها في بيزنطة، ووصل إلى كنيسة بطرس الرسول ترجل بكل سرعة ورشاقة، ثم لما عاد لامتطاء صهوة حصانه، امتطاه بقفزة واحدة، وكأنه مجرد تماماً من السلاح.

واستقبله هناك أسقف المدينة، وقد ارتدى الثياب الكهنوتية، وكان معه جميع رجال الدين، وقد حملوا في أيديهم صلباناً، كما حملوا الكتابات المقدسة، واندعش الأجانب والغرباء عندما رأوا بالاضافة إلى هذه الأشياء أرناط ومعه أعيان انطاكية يركضون على أقدامهم من حول الحصان الامبراطوري، وكان بلدوين، وهو رجل متوج، يسير في عرض بعيداً، وهو على ظهر حصانه، لكن بدون شارات وعلامات، وبعد الانتهاء من احتفال النصر هذا وفق هذه الطريقة، بقي الامبراطور في المدينة مدة ثمانية أيام، ثم غادرها، وأظهر الانطاكيون تذلاً كبيراً نحوه، وذلك أثناء اقامته في قصر أرناط، حتى انه مامن أحد عرض قضية أو شكوى أمام المحكمين المحليين للبت بها، بل أمام الرومان.

٢١- [ب] وبعدهما نجح في هذه المسائل، استعد الامبراطور لقتال نور الدين، لكن بما أن نور الدين قد عرف بزحفه ضده، قام باطلاق سراح واحد من الايطاليين، هو ابن [كذا] صنجيل (٤٢)، مع الرجل الذي كان يتولى قيادة الفرسان في فلسطين، الذي يطلق عليه اللاتين اسم مقدم الداوية (٤٣)، وكانا من الرجال الأعيان، وبالاضافة لهما أطلق سراح عدد كبير من النبلاء ومن العامة، فقد أطلق نور الدين سراح ستة آلاف من الناس العاديين الذين كان قد أسرهم من بين صفوف الجيش الألماني والفرنسي أثناء زحفهما في آسيا [الحملة الصليبية الثانية]، ولقد فعل نور الدين هذا كله، ووافق بالاضافة إلى ذلك على مساعدة الامبراطور في حروبه في آسيا، وتقبله مانويل حليفاً على قاعدة هذه الشروط، ومن ثم تخلى عن أغراضه في حربه.

لكن بعد مضي وقت قصير عزم الامبراطور على إلغاء الاتفاقية، لكنه لم يتوصل إلى ما استهدفه، كما سيتضح معنا فيما يلي من أخبار: فبدون معرفة من نور الدين قام حشد من المسلمين بصنع كمين أوقعوا من خلاله أضراراً بالرومان الذين كانوا يقومون بجمع المؤن والأعلاف، وعندما

سمع الامبراطور بما حدث أقام كهائن في أماكن مناسبة هناك، وقام عند الفجر بالهجوم على المسلمين، وهم لا يتوقعون ذلك.

وبعدما تولى طرد المسلمين، رغب بالقيام بالصيد، فتوجه لهذا الغرض إلى السهول العليا من سورية، وهو أمر مرعب، السماع به في تلك الأوقات، ومضى أمامه عدد من الرجال لا يزيد عددهم عن الستة، لاقامة الفخاخ أمام أجحار الحيوانات، وقبل أن يقطع هؤلاء مسافة طويلة التقوا بأربعة وعشرين من مقاتلي الأعداء، وقد اشتبكوا معهم، وحاولوا بالخداع جذب بعض الرومان نحو جيشهم، الذي كان من ورائهم، وما ان رأى الصيادون هذا حتى ألقوا بأنفسهم في مجرى نهر كان أمامهم، وسبحوا عبره، وتوجهوا إلى الامبراطور كي يخبروه بما نزل بهم، ولم ينزعج الامبراطور لسماعه هذا الخبر، بل قال: تعالوا أخبرونا أين هو العدو؟ ومع أن الآخرين كانوا يرتجفون ومضطربين كثيراً، فقد أطلق الامبراطور العنان لفرسه وحمل على الأعداء، وظهر فجأة جيش لا يحصى عدده من المسلمين كان مرابطاً هناك في تلك المناطق، وانقض الامبراطور دونها توقف على وسط عدد كبير من الرجال المسلمين، وكان اندفاعه شديداً، وقد تمكن من دحرهم، ولم يتوقف عن المطاردة حتى التجأ العدو المهزوم إلى داخل حصون كانت قد شيدت هناك، وقد امتلأ السهل بجثث القتلى، ولهذا السبب، أراد عندما عاد إلى المعسكر، أن يقوم — كما ذكرنا — بإلغاء الاتفاقية مع نور الدين، لكن بعض الأخبار التي وصلتته من الغرب، والتي تحدثت عن اضطراب شديد هناك، حالت بينه وبين تنفيذ ما رغب القيام به.

وفي هذه الآونة انكسر ذراع بلديين للسبب التالي: فلقد شارك الامبراطور في الصيد، وكان مساهماً في التمارين، وقد تولته الدهشة تجاه الامبراطور من جميع الجهات، وهكذا رغب في أن يعرف هل هو مقدر في أعماله، وأراد أن يظهر أنه مكافئ للامبراطور في حملاته، وفيما هو منشغل

في نشاطه الرائع، انزلق فجأة مع حصانه، وأصيب — كما ذكرنا — بذراعه، وتولى الامبراطور على الفور تضميدها، وقدم له مايلزم من عناية، لذلك فك الرباط بعد أيام قليلة.

وتفوق الامبراطور في هذه المسائل على عدد كبير من الناس الذين انشغلوا طوال حياتهم في فن المعالجات الطبية، وفي الحقيقة رأيت وسط عدد من الرجال المدربين يعالج الجروح، ويقدم الأدوية والعقاقير للمرضى، كما أنه أسهم كثيراً في علم المعالجة والإبراء، الذي ظل مجهولاً لوقت طويل، ولا يُعرف أي عقار يصلح للدهن وأياها يصلح للشرب، وذلك مع أشياء كثيرة يمكن لأي راغب أن يجمعها من المشافي العامة، التي تدعى بالعادة «بيوت الضيافة»، لابل قدم أكثر من هذا كله.

ثم ركب الامبراطور الطريق إلى بيزنطة، وارتحل على أقصر الطرق، فانطلق من بامفيليا، وقاد جيشه من خلال وسط ليكونيا، مع أن السلطان قد عارض ذلك بكل شدة، وعندما اقترب من مدينة لاراندا Laranda [قرامان] (٤٤)، غادرها الأتراك الخائفون وفروا منها، حيث خيّل إليهم أن الرومان سيقومون على الفور بالهجوم على قونية، لكن عندما لم يلحق بهم أدنى أذى على أيدي الرومان، استردوا شجاعتهم، وجلبوا كميات من المؤن وقدموها لهم، وزودوهم بها، بيد أنه كان من غير الممكن بالنسبة للأتراك التخلي كلية عن الكراهية التي جلبوا عليها، وهكذا عندما وصل الرومان إلى كوتيايون Kotiaion [كوتاهيا] قاموا بمهاجمة بعض الذين تخلفوا عن بقية الجيش، وقتلوا عدداً منهم وأخذوا البقية أسرى، ثم عاد الامبراطور إلى بيزنطة، وبعدها احتفل بانتصاره العظيم، وقدم الشكر للرب على انتصاراته، عاد إلى قصره (٤٥).

٢٢- وجرى تذكيره بعد أمد قصير ليأخذ الثأر وينتقم من الأتراك لأعمالهم الحمقاء التي مارسوها ضده، فقام بحشد جيش في سهول

كيسيليا Kypsella [إيسالا في تراقيا]، وكتب بالوقت نفسه إلى حاكمي المناطق الرومانية في آسيا، يأمرهما بمهاجمة الأراضي التركية في وقت محدد: واحد من جانب، وآخر من جانب آخر، وبما أن هذا قد وقع بالفعل، فقد أدى إلى إلحاق أضرار عظيمة بالأراضي التركية، وعندما وصل الموسم إلى الانقلاب الشتوي، عبر الامبراطور المضيق وجاز إلى آسيا، ووصل إلى دوريليون عبر نهرها الذي يدعى أحدهما باثيس Ba-thys [موتاليب ديري أوساريسو Muttalip Dere-Sarisu] وذلك من قبل السكان المحليين، واسم الآخر ثيريس Thybris [أوتمبريس وحالياً بورسول جي]، وبعدها اجتاح المنطقة المجاورة بأكملها، طرد حشداً كبيراً من الناس مع كميات من مختلف أنواع الحيوانات، وبعدها عرف الأتراك بما لحق بهم من أضرار، شرعوا يظهرن على شكل فئات وجماعات، وأرسل الامبراطور إحدى التشكيلات الرومانية لتتولى نهب المنطقة الممتدة أمامها، وقام هو نفسه بالصعود إلى المناطق المرتفعة في تلك المنطقة مع قليل من أتباعه، وأمرهم بالنفخ بصوت مرتفع بالأبواق الامبراطورية، ساعياً من وراء ذلك إلى إلقاء الرعب بين الأعداء، حيث سيتصورون أن الامبراطور يقود بنفسه أعمال القتال.

وكما حدث دوماً، في ايقاعه مذابح عظيمة بين صفوف هؤلاء البرابرة، كلما ظهر بشكل غير متوقع بالنسبة لهم، فقد ظهر كالصاعقة، وقيل إن آلافاً قد ذبحوا منهم، لابل إن عشرات الآلاف من الرجال المسلحين وغير المسلحين قد فروا غير مباليين بالعار، وعندما وصلت هذه الأشياء إلى مسامعي، بدت لي لا يمكن تصديقها، مثلها، لا يمكن تصديق أفعال [نقفور الثاني] فوكاس ويوحنا الأول ترمكس، اللذان لم يكونا بين الأباطرة القدماء، أو أعمال أباطرة آخرين كانوا مشهورين لشجاعتهم ومن الممكن مقارنتهم بهما، لأنه فوق المعقول أن تتم هزيمة آلاف من قبل رجل واحد، وأن يتم التغلب على أعداد كبيرة من الرجال المسلحين

تمام التسليح بوساطة رمح واحد، ولهذا، كان كلما أقمت في البلاط وسمعت بصوت مرتفع عن أعمال الامبراطور هذه، كنت أنصرف من الاجتماع وأنا فاقد لصوابي، لأن أخلاقي لاتتمشى بشكل طبيعي مع الاطراء الكبير، كما انني لأسمح بارادتي بمرور عبارة واحدة باستثناء العبارات الصادقة وليس الاطراء الكاذب، واعتدت أن أدع هذه الأشياء لتنسج ولتصنع باستمرار في العاصمة وداخل القصر، وبين الذين يشغلون الوظائف العالية، وذلك حتى تصل الحقائق إلى ناظري، وهذا ماحدث عندما صدف أن وجدت نفسي وسط الأعداء، ورأيت عن قرب قريب الامبراطور وهو يتولى مقاومة وحدات تركية كاملة، وسيتولى التاريخ وصف هذه الأشياء في اللحظة المناسبة، ودعونا الآن نتابع السير نحو ما هو قائم أمامنا.

وكان الامبراطور في أعالي تلك المنطقة، في حين زحف الجيش الروماني نحو الداخل، واصطدم بشكل غير متوقع مع القوات التركية، وبما أن الصراع بدأ يداً بيد، وبما أن القوات الرومانية بدأت تشعر بالضيق، عندما علم الامبراطور بذلك سارع بأقصى ما يمكن، دون أن يرتدي درعاً، ودون أن يحمي جسمه بأي شيء آخر باستثناء ترس، وانقض بسرعة وسط الأعداء، وقام بأعمال رائعة عبّر فيها عن قوة جبارة، حيث كان يضرب بسيفه كل من اقترب منه، وعندما شرعوا بالهرب، لم يضع وقته، وقام بمطاردتهم إثر تزويد يده برمح، ودون أن يلتفتوا نحو الخلف هربوا بعيداً، وحقاً من غير الممكن تصور جيش كبير بهذا التعداد قد تمت مطاردته من قبل رجل واحد، لأن الخوف الذي حلّ بهم أغلق تماماً أعينهم، لكن عندما لاحظوا الحال الذي كانوا به، أخذ كل واحد منهم يهزأ بالآخر ويعيره بالجبن، وهنا انعطفوا فجأة، ووقفوا مواجهين له، لكنهم والرعب مازال يقودهم، امتنعوا عن الاندفاع نحوه والانقضاض عليه بأنفسهم، غير أنهم أفرغوا ما كان بجعبهم من سهام أطلقوها عليه،

ولذلك كان يحول ترسه من جانب إلى آخر، يدفع بذلك عن نفسه الرمايات، ويحمي جسده من السهام.

وكان بين الأتراك واحداً شجاعاً وفرداً نشيطاً، وعندما رأى ما من واحد بين هؤلاء جميعاً تصدى للامبراطور بالقتال، كان يغلي غضباً، فتناول سيفاً من أيدي واحد من أتباعه، واندفع ليضرب الامبراطور، لكن الامبراطور أمسكه من شعره وأخذه أسيراً، وأخذ معه ثلاثة آخرين من الأعيان، وعندما وجد البقية أنفسهم غير قادرين على مواجهته، غادروا المكان فراراً، وعاد الامبراطور إثر ذلك إلى المعسكر ومعه أسراه هؤلاء، ولدى ادراكه أن الشتاء جاء قاسياً جداً، قرر العودة إلى بيزنطة (٤٦).

٢٣- وفي ذلك الوقت تماماً [أوائل ١١٦٠] كان في ثغريشينا، حيث كان قد أسكن من قبل الأسرى الرومان من فيلومليون [كان اسمها فيليا] (٤٧)، وتعامل هناك مع الرسل الذين جاءوا من عند السلطان، وعندما لاحظ أنه لم يكن لديهم شيئاً جاهزاً لإعلانه، صرفهم، وهدهم أنهم ما لم يعملوا متماشين مع ارادته سيقوم الفرسان الرومان بعد وقت قصير باجتياح أراضيهم، ونهب كل شيء بشكل أسوأ حتى مما تم الآن، وبعدما أمضى بعض الوقت في أوغسطيني Augouste ، انطلق من ثم من هناك (من قرية دعيت آنذاك محلياً باسم رتزيون Rhitzion)، وقد استقبله السكان المحليون عندما عبر إلى الطرف الأقصى من [خليج أستاكينوس Astakenos] ، وذهب إلى الشاطئ المقابل، وزحف من هناك ركباً الطريق المار بالمدن الساحلية، ووصل إلى فيلادلفيا، وقام من هناك — بعدما أعدّ عدته — بمهاجمة الأراضي التركية (٤٨).

وكان الرسل الأتراك يسيرون عبر سهول دوريلايون Dorylaion ، حيث كانوا يجهلون تماماً أخبار حملة الامبراطور على قومهم، ذلك أنهم كانوا واثقين أنه كان مقيماً في أحواز مدينة بيزنطة، وعندما كانت أخبار

الحملة الرومانية لاتتعدى الاشاعات في كل مكان [شتاء ١١٦٠-١١٦١]، شعر الأتراك بالبداية أن الأمر لا يصدق، غير أنهم عندما سمعوا عنها من عدد كبير من شهود العيان، حركوا جيشهم، وبادروا مسرعين للتصدي لها، لأنه لم يحدث أن عانى البرابرة من قبل مثلما عانوه الآن من خسائر بالمال والعتاد، وظناً من الامبراطور أن الأتراك مازالوا لا يعرفون شيئاً عما فعله، قدّم أمامه بقية الجيش الروماني، وسار خلفهم مع عدد قليل من الرجال، وسمع الرومان أن الأتراك كانوا يزحفون بقوة، وقد انزعجوا لذلك واضطربوا كثيراً، لاسيما لأن الامبراطور لم يكن معهم، غير أنه مالبث أن التحق بهم، ذلك أنه سمع بزحف الأتراك، فاستردوا شجاعتهم، وزحفوا بحماس أكبر، وبما أن الوقت كان آخر النهار فقد ترجلوا من على ظهور خيولهم، وقدموا للخيول طعامها المعتاد، واستراحوا لبعض الوقت، ثم استأنفوا انطلاقهم، وكان الليل قد حلّ، لذلك ركبوا الطريق وساروا عليه مستخدمين ضوء المشاعل.

وصنعت المشاعل كما يلي:

بأثبات أقذاح معدنية على قاعدة تشبه الصحن، وهذه الأقذاح المعدنية مثبتة نحو الأعلى، وهي منفصلة، وتتضاءل صعوداً من العرض إلى أن تصبح مدببة، ويثبتون على الصحن شوكة معدنية أخرى، تختلف عن البقية، بأنها في أولها سميكة ثم تغدو مدببة، وبعدما يتولون ربطهم صعوداً حول بعضهم برباط ما، يصبحون أشبه بقاعدة مشعل، ويربطونهم على رأس رمح، ثم يأتون بقطع من الكتان جرى قصها طولانياً، يجعلونها تمتص ما أمكن من دهن الخنزير (٤٩) ثم يلفونها بعناية، ويثبتون كل منها فوق إحدى النقاط المدببة للشوك المعدنية، وهذه عندما كانت تشعل كانت تعطي ضوءاً ساطعاً، يصدر عنها، فيكون الحال بالنسبة للعساكر أشبه بضوء النهار، وما قلناه هذا يكفي عن المشاعل.

وكان الثلج يتساقط بغزارة، وهكذا اختفي الطريق تماماً، وتاه الجيش الروماني، وأضلّ الطريق، وكاد أن يقع في منطقة خطيرة، لولا أن الامبراطور شعر بالخطأ، فحمل بيده مشعلاً، وتحرك ذهاباً وإياباً، وفي هذا الاتجاه وذاك، حتى عرف الطريق، ومن ثم قاد الجيش عبر الطريق الصحيح، وعندما وصل الجيش إلى قرية سماها السكان المحليون باسم ساراباتا ميلونوس (Sarapata Mylonos) (٥٠) حتى شرع بالعمل على جمع المؤن والأعلاف، وكان اسم الذي تولى حكم جميع تلك الامارة (اسمه سليمان) (٥١)، وقد سمع بالأخبار التي انتشرت في كل مكان، ومع ذلك كان متردداً في تصديق ما قيل، لذلك بعث بابن أخيه واسمه بوباكس (٥٢) (أبوبكر)، الذي غالباً ما كان قد رأى الامبراطور، وأمره أن يقترب ما أمكن من الجيش الروماني ويتجسس أخبار الامبراطور، وعندما رأى أبوبكر الامبراطور ترجل على الفور من على ظهر حصانه، وخاطبه بعبودية ولدى معرفة مانويل الرجل من كان ومن الذي أرسله قال له: «قل مايلي لسليان:

أنت الذي ترغب الآن في معرفة من الذي يتولى نهب الأراضي التركية، اعمل كما لو أن النار قد ألقيت على بيتك، وأنت لم تقم اعتباراً للطريقة التي يمكن أن تتغلب بها عليها، والذي عليك هو أن تبحث جيداً لتعرف من أين جاء أصلها، ومن الذي أشعلها، لايجوز لك الرغبة بالتخفي وراء جنبك بالتظاهر بالجهل، وكأنك قابع تحت ردائك، لأنه من غير المنطقي أن يعفي التظاهر بالجهل مستخدمه من الملامة، والمنطق العام يعرف شيئاً واحداً رائعاً فقط: إن الشجاع وقت المخاطر هو الذي يوازن بين الأمور، وهو إذا لم يتمسك بهذا يفقد كل شيء، وفيما عدا ذلك فإن عذرك لا مكان له، حسناً، لقد أدركت، أنك لاقيت الذي أنزل القوارع بالأتراك، فإذا ماكنت ترغب بالتصدي له، لا تمتلك عذراً، [أن لا تفعل ذلك].»

وما ان أكمل كلامه هكذا حتى أعاده، وبعدما تولى نهب ماوقع أمامه، وعرضه للهدم، والتخريب، ركب الطريق عائداً، لكن حدث أولاً شيئاً لايمكن أن يصدق، لأنه قيل بأن الجيش الروماني لم يكن فيه أكثر من ستين رجلاً مقاتلاً، بيد أنه عندما باتت أمور الرومان في وضع خطير جداً، تم انقاذهم بشكل غير متوقع، ولقد تجمع الأتراك بأعداد كبيرة، كما أنهم امتلكوا أجزاء من الأراضي زادت تفوقهم، وكان الأتراك يرمون من الأعلى، لذلك الموا الرومان أيلاماً شديداً، وأرغموهم على التجمع مع بعضهم والتكتل، ومع هذا لم يكن الأتراك على دراية بشجاعة هؤلاء، ذلك أن طبيعة المكان لم تكن موائمة لمرورهم، ثم أحاق الخطر بالامبراطور نفسه، لأن بعض الذين كانوا يتولون حراسته أخذوا يتبددون خفية، ومع أن الامبراطور في هذا الوضع الخطير، لم يتخل عما اعتاد عليه من الشجاعة، قام بابعاد جون قريبه بالمصاهرة (٥٣)، الذي غالباً ماورد ذكره من قبل، وكان قد اقترب منه، وكان متشوقاً لتزويده بترس (لأنه كان آنذاك مجرداً من السلاح)، قائلاً بأنه كان من غير الممكن لترس واحد أن يكون كافياً لحماية جسدين، وتمكن الرومان بعد صعوبات جمة من الجواز خلال تلك المنطقة، وعندما أصبحوا في منطقة أعرض وأوسع، سمحت للخيل بالتحرك وللرجال بفرصة البرهنة على قوتهم، فرددوا عالياً صرخة الحرب، ومدوا رماحهم وأشرعوها باتجاه العدو، وانقضوا عليه، فردوه إلى الخلف، وذبحوا عدداً كبيراً من أفرادهم، وعادوا جالين معهم جميع أسلاب كل من طردوه، وصحيح أن كثيرين قاتلوا بشجاعة، فقد تفوق الامبراطور على كل الموجودين، فما من واحد تقدم عليه بالاشتباك مع العدو، وما من أحد قام بمثل ما قام به من أفاعيل شجاعة، ولقد عاد الامبراطور إلى بيزنطة بعد نجاحاته هذه.

٢٤- وبعدما نزل بالأتراك منازل من فواجع، قرروا رداً على ذلك إلحاق الأذى بالرومان، وحزموا أمرهم واستغلوا وقتهم فاستولوا على

فيليتا (٥٤) Phileta ، وهي مدينة شرقية، ثم هاجموا أيضاً بشكل غير متوقع لوديكييا في فريجيا الصغرى، وألحقوا بها أضراراً كبيرة وكادوا يدمرونها، وساقوا أمام سيوفهم كثيراً من السكان من الشبان فما فوق حيث اتخذوهم أسرى، وفي الحقيقة كان عدد الأسرى كبيراً وتكوّن من حشود لا يمكن عدّها.

وعندما سمع الامبراطور بهذا غضب غضباً عظيماً وتألّم كثيراً، وود لو أنه كان ممكناً— أن يجوز على الفور إلى آسيا ويشرع بقتال قونية، لكن لما كان يعلم أن هذا يحتاج إلى وقت موائم لتنفيذ مثل هذا العمل، ولا استعدادات أعظم للحرب، فقد قرر التخلي عن الفكرة والابتعاد عنها.

ووضع في ذهنه أن يقوم بجمع قوات من كل اتجاه، ولذلك بعث بجون كونتوستيفانوس إلى فلسطين [أوائل ١١٦٠] كي يقابل الملك بلدوين، ويجلب معه من هناك الرجال الذين جرى الاتفاق حولهم بموجب تحالفهم الذي قضى بتزويد الامبراطور بما يطلبه، وأن يقوم كذلك بتجنيد وحدة من المرتزقة، وأمر أيضاً أرناط أمير أنطاكية أن يشرع بأقصى سرعة ممكنة بالتحرك مع القوات التي من حوله، وكذلك أمر قادة الأرمن آنذاك وهم: طوروس وتيغرانيس وكريسافيوس الكيلكي، والذين يدعوهم الناس كوخ فاسلي (٥٥)، وهم قادة قوات عسكرية، لكنهم كانوا قد التحقوا متطوعين منذ أمد بعيد بالامبراطور وصاروا من رعاياه، وحشد من الشرق بهذه الطريقة جماعة كبيرة، واستدعى من الغرب الفرسان الليغوريين [أي اللومبارديين]، كما استدعى زوبان العظيم صاحب صربيا مع القواد الذين كانوا تحت أمرته، واكثرى كثيراً من بين السكيزيين من بين القبائل التي عاشت حوالي تاروس [أي تاروس سكيزيا أو الروس]، ولم تقتصر استعداداته للحرب على هذا فقط وبهذه الحدود، بل كان يعرف أن بين الأراضي التي وقعت في أيدي اللاتين المستولين على فلسطين، كانت جزيرة رودس، وقد استأجر من

هناك جماعات كثيرة من الفرسان المرتزقة، ومن أجل المؤن والخدمات الأخرى أمر بجلب أعداد لا تحصى من الثيران مع عرباتهم من قرى تراقيا (٥٦).

وقام بهذه الاستعدادات، وفي الوقت نفسه أراد أن يحول عداوة السلطان نحو بني جلدته وقرابته، فكتب إلى أخيه شاهنشاه الذي كان يحكم غانغرا Gangra وأنكيرة غلاطية [أنقرة]، وإلى صهره يغي - باسان الذي كان يحكم كل من قيصارية [قيصري] وأميسيا [أماسيا] مع مدن أخرى هامة قائمة في أراضي كبدوكية، وبعدهما جعلهم يشكون بالسلطان، بات على وشك انجاز الاستعداد للحرب، وعلم السلطان بهذا كله، وبما أنه لم يكن قادراً على مواجهة كل هؤلاء الذين ثاروا ضده بتحريض من الامبرطور، تخلى عن ملكية عدد من المدن، خاصة المدن التي احتلها منذ وقت وجيز بعد بذله لجهود كبيرة، تخلى عنها لصالح الذين عاشوا على مقربة من أراضيه، وكتب إلى الامبراطور وسأله العفو عنه، ووعده أنه إذا ما حظي بذلك فإنه سيتولى إعادة الأسرى الرومان، حيثما كانوا مختلفين في مملكته، وأن البحث عنهم هو مسؤوليته وعمله.

وبينما هذه الأمور قيد التجربة، حدث شيء ما كان كما يلي: عندما كان جون [كونتوستيفانوس] منطلقاً من فلسطين [خريف ١١٦١] مع الفرسان، اصطدم بجيش تركي زاد على العشرين ألفاً من الرجال المقاتلين، ولقد فوجيء بالبداية، ولذلك توجه مسرعاً مع أتباعه إلى رابية كانت قائمة هناك، واتخذاً موقفاً، ومن ثم بعث الحماس في الجيش كله، وانقض على الأتراك، وبما أن حملة الرومان كانت شديدة جداً على الأعداء، والقتال كان قاسياً، فقد شرع الأتراك بالتراجع، وهنا سقط عدد كبير منهم، كما وسحق الفرسان كثيراً تحت أقدامهم، وحدث أن عدداً كبيراً من الأشخاص الآخرين حققوا انجازات وقاموا بأفاعيل جديدة

بالتدوين، ودللت على شجاعتهم، لكن في ذلك الصراع أبدى القائد ماتفوق به على الآخرين شجاعة وإقداماً، وعاد جون بعد هذا النجاح يحمل معه إلى الامبراطور غنائم نصره.

وعندما سمع السلطان بهذا، تملكه الغضب والأسف، ولعن نفسه لتسرعهم هذا الذي جاء في غير وقته، ولم يزعجه ما حدث لأتباعه بقدر ما بقي أمامه وعليه مواجهته بسبب زحف الامبراطور ضده، ولهذا تصرف وكأن البيزنطيين يهددون الذين لم يستعدوا بعد، وبناءً عليه سارع بزيادة عروضه المتقدمة بأشياء إضافية وبتقدمات أعظم، فوعد بإعطاء الرومان سنوياً قوة حليفة بناءً على الطلب، كما ووافق على أنه مامن تركي سوف يدوس بقدمه الأراضي الرومانية بدون إذن من الرومان، وإذا ما حاول أحد من بقية الامارات التركية إزعاج الرومان وتسيب الأذى لأراضيهم، فإنه سيعلن الحرب عليه، ويباشرها ضده فوراً، وسوف يعيق بكل وسيلة أي عمل تآمري مهما كان مصدره ومنشأه، وسيكون على استعداد لفعل أي شيء يأمر به الامبراطور بدون تردد، ووافق على إعادة إحدى المدن التي كانت تابعة من قبل للرومان، غير أنها وقعت تحت السيطرة التركية، واقتنع الامبراطور بهذه الأشياء، فأخذ عليه العهود والمواثيق المغلظة، فأنهى عمله العسكري، وعاد إلى الوطن.

ولدى معرفته بخبر أن الكومان قد عبروا الدانوب، لنهب الأراضي الرومانية، تحول عن الطريق الذي يقوده إلى بيزنطة، وزحف نحو مكان الجواز قرب مدينة أبيدوس، حيث قامت بلدة ساحلية صغيرة في منطقة تراقيا، أعتقد أنها نالت اسمها من كالياس Kallias ، وكان قائداً للأثينيين (٥٧)، وعبر من هناك، وأسرع في زحفه ضد الكومان، أما هؤلاء فلأنهم حزموا أمتعتهم بسرعة وغادروا المكان، عندما سمعوا بزحف الرومان، وحدث هذا حتى قبل أن يصل الامبراطور إلى الدانوب.